الفصل الثاني والخمسون

الدولة

أقصد بالدولة الشعب والحزب أو الجماعة الحاكمة له في أرضه وتحت سلطانه وفي حيازته وملكه . لذلك لا أشترط في هذه الدولة أن تكون دولة كبيرة كالدولة الرومانية أو اليونانية أو الساسانية ، فقد تكون الدولة حكومة قَرْيَة مثل يثرب أو مكة ، وقد تكون حكومة قبيلة ، وقد تكون أكبر من ذلك وأوسع مثل دولة الحيرة ودولة الغساسنة ودول اليمن. فلا علاقة اذن لكبر أو لصغر الحكومة بمفهوم الدولة في نظري ، فكل حكومة جاهلية مستقلة، هي عندي مع شعبها أي التابعين لها دولة صغرت أم كبرت .

والشعب في الجاهلية وعند الجاهليين ، هو القبيلة . فالقبيلة هي أصل الدولة ونواتها ، وتقوم على رابطة الدم ، أي على فكرة ان القبيلة هي من صلب رجل عاش حقاً ومات ، وان أفرادها من هنا يرتبطون بينهم برابط الدم،أي ان بينهم قرابة وصلة رحم . أما وطن القبيلة ، فالأرض التي نشأت فيها ، ثم الأرض التي هي عليها . فمن القبيلة ومن أرضها ، تكونت دولتها ، وعلى رأسها سيد القبيلة .

هذا بالنسبة الى الأعراب ، أما بالنسبة الى الحضر ، فإن فكرة الدولة عندهم تختلت باختلاف درجة أولئك الحضر . فالدولة في العربية الجنوبية ، تجمع شمل قبائل عديدة كما تضم طوائف وفئات رُسمت لها حدود معينة وحددت بحدود وقيود،فلا تتجاوزها . وقد حدد المجتمع مكانتها ومنزلتها بحيث جعل من المجتمع العربي الجنوبي مجتمعاً طبقياً . يتمتع فيه الملوك ومن يأتي بعدهم من حكام

وأصحاب معبد وأرض بأعلى المنازل ، ثم تليهم بقية الطبقات حسب قوتها ومكانتها الى أن تصل الى سواد الناس ، وأقلهم منزلة الرقيق واصحاب الحرف المبتذلة . وهو نظام بقيت روحه وجذوره قائمة في اليمن الى الوقت الحاضر ، ولكنه بدأ ينجاب بمقاومة روح العصر وتقدم البشرية ، فأخذ يتهدم بعض التهدم حسب مواطن الضعف في البناء . وأما في الأماكن الحضرية الأخرى ، مثل العربية الشرقية وفي الحجاز ، أو نجد ، فإن درجة فهم الناس فيها للدولة ، اختلف فيها ، باختلاف تقدم ذلك المكان في الحضارة وباتصاله بالعالم الخارجي .

وبفضل عثور الباحثين على كتابات تعود الى عهود مختلفة من تأريخ العربية الجنوبية ، استطعنا الالمام بعض الالمام بشيء من نظم الدولة في تلك الأرضين . وفي جملتها طرق الحكم فيها ونفوذ رجال الدين وأصحاب الأرض والحياة الاقتصادية التي جعلت العربية الجنوبية مجتمعاً مكوناً من طبقات ، يسيره الحكام ورجال الدين وأصحاب المال والأرض . أما بالنسبة الى المواضع الأخرى ، فإن علمنا عن هذه الأمور هو دون علمنا عن العربية الجنوبية بكثير ، بسبب عدم عثور الباحثين على كتابات جاهلية فيها ، نستطيع أن نستلهم منها وحينا عن الماضي البعيد . ولذلك فعلمنا عنها ضحل ، استمد أكثره من أخبار اهل الأخبار ، وهي فجة أو مصنوعة ، أو محرفة حرفها مرور الزمن ، أو مدسوسة عمداً من اخباري أراد اظهار علمه للناس ، أو من متعصب لقبيلة أراد بدسه الأخبار التفريج عن عاطفة التعصب الكامنة في نفسه .

ويعبر عن سكان القرى والمدن بـ (أهل) وبـ (آل) . فيقال (أهل مكة) و (أهل يثرب) ، ويراد بهم قطان مكة وسكان يثرب ، و (شعب) في التعبير الحديث ، على اعتبار أن كل مدينة مستقلة بشؤونها قائمة بإدارة أمورها وهي حكومة ذاتية يدير حكمها سادات المدينة . على نحو ما كان عليه الوضع في القرى الأخرى من الحجاز وفي نواحٍ عديدة من جزيرة العرب . وإذا أصيب احدهم بضيم ، او أراد شيئاً يتطلب العون والمساعدة نادى : (يا اهل مكة) او (يا آل مكة) ، فيلبي ساداتها نداءه ويمضون في معالجة أمره ، والغريب عند (اهل مكة) ، له حق النخوة والإستجارة ، فإذا نادى بشعارهما حصل على من يدافع عنه ويأخذ حقه ممن ظلمه .

ويشعر سكان المدن والقرى انهم كالقبيلة من اصل واحد ، وأن لهم جداً

أعلى ، يرجع نسبهم اليه ، او جدة إن انتمى اهل المدينة الى امرأة . وذلك ، لاعتقادهم أنهم من قبيلـــة واحدة في الأصل ، هاجرت الى هذا المكان فسكنت فيه . فرجع نسب مكة الى (قريش) ، ونهاية نسب اهل يثرب من الأوس والخزرج الى (قيلـــة) جدتهم ، ونسب أهل الطائف الى ثقيف . فنحن إذن وإن كنا امام مدن وقرى ، اي أمام عرب حضر ، لكننا نجد انفسنا امـام نظم تقوم على أسس قباية وعقلية قبلية . فالقرية في الواقع قبيلة مستقرة تمركزت في مكان واحد . وقـــد تمسكت بنظم تفرع القبيلة وبالعصبية ، وبما الى ذلك من عرف مجتمع أهل البادية . وقد بقيت رابطة النسب وصلة الدم بهـــا قوية . ذلك لأن تلك القرى ، وإن جلبت اليها الأجانب والغرباء ، غير انهـا بقيت مجتمعات منعزلة ، لأن وسائل الاختلاط لم تكن متهيئة لها في ذلك الوقت ، حـــتى تجبرها على الخروج عن العزلة ، والاختلاط بالغير ، اختلاطاً شديداً على نحو ما يحدث للحضر في الأمكنة المتحضرة الممتزجة بالسكان .

وجدّ القبيلة ، هو مصدر إلهامها ، ورابطها الروحي الذي يربط بينها . باسمه تتنادى في الغزوات والحروب ، لتبعث حرارة الاندفاع والحماسة في القتال ، وبه يدعو للنخوة أبناؤها ومن يلتجيء الى القبيلة من مولى أو جار ، وبقبره يلاذ إن كان له قبر ، وباسمه يحلف كما يحلف بأسماء الآلهة .

وللقبائل مصدر إلهام روحي آخر ، هو أصنامها . فكان (المقه) صنم سبأ ، وكان (ودّ) صنم (معين) ، وكان للقبائل العربية الشمالية التي حاربت الأشوريين أصنام يحملونها معهم في سلم وفي حرب . ويستمدون منها المدد والعون في الغزوات والحروب . ويعد سقوط الصنم في أيدي الأعداء نكسة للقبيلة وعاراً على أبنائها ، لذلك كانوا لا يهدأ لهم بال حتى تعاد اليهم أصنامهم . وكان من أهم ما يدعو القبائل العربية الى التهادن مع الأشوريين رغبتهم في استعادة أصنامهم وضمان عودتها من المنفى والأسر الى الحرية .

ولما ظهر الاسلام كانت القبائل ما تزال تحتمي بأصنامها وتدعوها لتنصرها في الحرب ، حتى من تحضّر منها واستقر ، مثل أهل مكة الذين كانوا ينادون : (أُعْلُ هُبَلْ . أُعْلُ هُبَلْ) في حربهم مع المسلمين . أمـــا الذين غيّروا دينهم وتنكروا لعبادة الأصنام فقد احتموا بشفعاء جدد ، أخذوهم من النصرانية التي دخلوا فيها ، فكان لهم قديسون يلوذون بهم في أثناء القتال .

ويعبّر عن القبيلة بلفظة (شعب) في العربيات الجنوبية[1] . فالقبيلة والشعب إذن لفظان مترادفان على معنى واحد . الشعب بمعنى قبيلة في عربية القرآن الكريم ، والقبيلة بمعنى شعب في العربيات الجنوبية . ولكن علماء العربية يفرقون بين اللفظتين، فيجعلون الشعب أكبر من القبيلة . والظاهر ان هذا التفريق قد وقع في الجاهلية القريبة من الاسلام ، ونجده في القرآن الكريم في آية الحُجرات : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[2] . فذكر المفسرون ان الشعب أكبر من القبيلة . غير ان كثيراً من علماء العربية يرون أن الشعب والقبيلة في معنى واحد[3] .

وقد وردت كلمة (شعب) في الكتابات السبئية بمعنى قبيلة كما ذكرت ، فورد : (شعب سبا) ، بمعنى قبيلة سبأ . وورد (سبا واشعبهمو) بمعنى (سبأ وأشعبهم) ، أي السبئيون وقبائلهم ، ويراد بقبائلهم القبائل الأخرى الخاضعة لهم[4] .

ويرى بعض الباحثين في العربيات الجنوبية ، ان لفظة (شعب) لا تعني عند العرب الجنوبيين معنى (قبيلة) بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا ، بل تعني جماعة ترتبط بالدولة وبالآلهة : آلهة الدولة ارتباطاً ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً . فإذا قلنا شعب سبأ (شعب سبا) ، فإننا لا نقصد قبيلة سبأ ، بل أمة سبأ ، أو شعب سبأ بالاصطلاح الحديث . أي رابطة مواطنة تجمع شمل جميع المواطنين بالدولة جمعاً روحياً ومادياً ، أي ان أمة سبأ تجمع السبئيين وغيرهم من الغرباء من أتباع حكومة سبأ ، الخاضعين لحكم هذه الحكومة ، ويدينون بالولاء لها ولأنظمتها ولقوانينها الروحية والمادية[5] .

ونجد في النصوص العربية الجنوبية إشارات الى وجود ثلث أو ربع أو نصف قبيلة . فورد : (ثلثن سمعي) ، أي (ثلث سمعي) . ومعنى هذا ان جزءاً

---

١ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 448.

٢ الحجرات ، الاية ١٣ .

٣ تاج العروس (٣/١٣٤) ، (شعب) .

٤ يراجع السطر التاسع من النص في : REP. EPIG. V, 2726

٥ Grohmann, S. 122, Rhodokanakis, Der Grundsatz der Offentlichkeit in Südarabischen Urkunden, S. 42, (1945), Bodenwirtschaft, 181, 183, Handbuch I, S. 119.

من قبيلة ما تعاون مع سكان منطقة ما لاستغلال أرض وللاستفادة من غلاتها . فيذكر عندئذ رقم الجزء الذي نزل في هذا المكان . ولا يعني هـذا بالضرورة ثلث أبناء القبيلة أو ربعها أو نصفها أو خمسها على الوجه المفهوم من القبيلة عندنا . بل يعني ذلك توزيع الأعمال والشغل على المجتمعين الذين تجاوزوا ورضوا بالعمل معاً حسب الأجزاء المذكورة ، التي تمثل نسب اشتراك المشتركين في العمل .

وفي العربيات الجنوبية مصطلح ، له صلة بمعنى (المواطنة) والمواطنين بالمعنى الحديث . وهو مصطلح : (خمس) ويجمع على (اخمس) (أخمس) ، ويراد به مواطنو مملكة او إمارة . فهو بمعنى المواطنة او الرعاية في الاصطلاح الحديث . فكل من يعيش في حكومة ما في اي مكان كان ، من قرية او مدينة ، فهو (خمس) ، أي مواطن ومن رعايا تلك الحكومة ، كما نرى في هذه الفقرة في نص (معيني) : (وكل الالت معنم ويثل وكل الالت ذا خمسم واشعبم) ، ومعناها: (وكل آلهة معين ويثل وكل آلهة المواطنين والقبائل) . ويراد بـ (اشعبم) هنـا القبائل ، أي الأعراب . واما (أخمس) ، فيظهر أن المراد بها الرعايا الحَضَر المستقرون . وورد في نص سبئي : (خمسيهو وحميرم) ، أي (مواطنو سبأ وحمير) .

وترد لفظة (جوم) (كوم) في النصوص السبئية القديمة بوجـه خاص ، مثل هذه الجملة (هوصت كل جوم)[1] . ويرى بعض الباحثين أن (هوصت) بمعنى (ملة) . و(الملة) ، في الإسلام،يراد بها نظام ديني واقتصادي واجتماعي، ارتبط أفراده بمجتمع واحـد ، برابط الأمور المذكورة[2] . اما لفظة (جوم) (كوم) ، فترادف لفظة (قوم) في عربيتنا . وقد يكون القوم عدداً صغيراً، وقد يكون كبيراً. ويرتبط القوم برباط متين يربط افراده ، هو الإلـه الذي ينتمي القوم اليه . فورد (جوم عثتر) و (كوم ود) ، اي (قوم عثتر) (وقوم ودّ) . فالقوم إذن جماعة وإخوان في دين ، تؤمن بإلـه يجمع شمل المؤمنين به ، ويربط بينهم برباط العقيدة والإيمان به ، لا برباط النسب وصلة الرحم والدم .

هذا ، ويذكر علماء اللغة ان (الملة) ، الشريعة والدين ، كملّـة الإسلام

---

١ يراجع النص : Glaser 484.

٢ Rhodokanakis, Stud. II, S. 8, WZKM. 28, 110, Note : 2.

والنصرانية واليهودية . وهي في اللغة السنة والطريقة[1] . وقد وردت في خمسة عشر موضعاً من القرآن الكريم[2] . استعملت في ثمانية مواضع منها للتعبير بها عن دين إبراهيم : (ملّة ابراهيم) . وللمستشرقين آراء متضاربة في أصل الكلمة[3] .

والمواطنون هم أبناء (القبيلة) ، التي هي نواة الحكومة وجرثومتها ، والتي بقوتها تكونت تلك الحكومة ، والقبائل المتحالفة معها ، أو التي خضعت لحكمها فتبعتها . ولهذا تذكر القبيلة ويشار اليها ، باعتبار ان الحكومة هي حكومتها في الأصل ثم يشار الى القبائل الخاضعة لها للدلالة على انها في حكم تلك الحكومة . فقد ورد في الكتابات السبئية (سبا واشعبهمو) ، بمعنى سبأ والقبائل التابعة لها[4]. وورد : (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في المرتفعات وفي التهائم) ، وهو لقب ملوك سبأ بعد توسع رقعة سبأ واستيلاء السبئيين على غيرهم وضمهم ارضهم الى ارض دولتهم . فدوّن اسم سبأ أولاً ، باعتبار ان السبئيين هم العنصر الحاكم المكون الأول للدولة ، ثم اشار الى من تبعهم وانضم اليهم سلماً او حرباً .

وبين (الشعب) وإلهه رابطة مقدسة وصلة متينة لا انفصام لها. وفي استطاعتنا ان نقول إن مجتمعات العرب الجنوبيين كانت مجتمعات دينية. فالشعب عبيد الإلـه، والإلـه بالنسبة لأتباعه أب غفور رحيم ، شفيق قدير . (الجوم) (الكوم) أي ألقوم ابناؤه واولاده . فالسبئيون هم ولد (المقه) ، اي اولاد المقه ، إلـه سبأ، والمعينيون هم (ولد ود) ، وقد خاطبوا إلههم (ودّآ) بعبارة : (و دم ابم) اي (ودّ أب) و (ودّ الأب) . وقال القتبانيون عن انفسهم (ولد عم) و (اولد عم) ، اي ولد الإلـه (عم) واولاد الإلـه (عم) . وفي هذه الجمل أجمل تعبير عن وجهة نظر المجتمع الى ربه . إن رب القبيلة ، هو الرابط المقدس الذي يربط شملها ويجمع بين أبنائه ، وبه يعتصم النـاس ، واليه يلاذ في الخير وفي الشر . وقد عبّر عن هذه الرابطة بلفظة جميلة هي (حبل) في بعض

---

١ اللسان (١٣/٦٣١) ، المفردات (٤٨٨) .

٢ Dictionary of Islam, p. 348.

٣ Shorter Ency. of Islam, p. 380.

٤ يراجع السطر التاسع من النص المنشور في : REP. EPIG. V, 2726.

الكتابات[1] . والحبل يربط ويجمع ويجعل من المتفرق وحدة . وهو مصطلح يذكرنا بالآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله »[2] ، وبالآية : « أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس »[3] . فلفظة (ولد) اذن بمعنى قوم وأبناء صنم أو موضع. فهي في معنى أبناء في اصطلاحنا الحديث ، تستعمل قبل اسم الصنم او الموضع او القبيلة ، لتدل على معنى المواطنة . ولا يشترط فيها أن تكون مواطنة نسب أي صلة رحم وقرابة دم ، بل مواطنة دينية ورابطة سياسية واجتماعية واقتصادية .

والإلـه حامي شعبه والذابّ عنه ، والمؤيـد له في السلم وفي الحرب . لذلك نعت بـ (شيمم) (ش ي م م) أي (شيم) ، وتعني اللفظة معنى حام وحافظ ومدافع . ونجـد الناس وهم ينعتون آلهتهم بهذا النعت في كتاباتهم طالبين منهم العون لشفائهم من أمراضهم ولحمايتهم من الأسوأ .

وفي جملة (اهل عثتر) وامثالها التي ترد في مختلف كتابات المسند ، تعبير عن هذه الرابطة المتينة التي تربط القوم بإلههم . تعبير عن صلة ملّة عثتر بربها. الجماعة المؤمنة بالإلـه عثتر . وتعبير عن جماعات انتمت الى آلهة اخرى ، وقـالت عن نفسها : (اهل) . ويشبه هذا التعبير تعبير (اهل الله) الوارد في الإسلام ويراد بهم المؤمنون بالله المنقطعون له وحده العابدون القانتون الزاهدون .

وهكذا نجد شعوب حكومات العربية الجنوبية ، مؤلفة من وحدات سياسيـة دينية . لكل وحدة رابطة روحية تربط أفرادهـا ، جعلت (المؤمنين إخوة) ، في عقيدتهم وفي تمسكهم واعتقادهم بإلـه قبيلتهم الخاص ، هو إلـه القبيلة .

ونحن إذ نقرأ لفظة (شعب) في الكتابات العربية الجنوبية ، يجب ان لا نفهم منها ما نفهمه من لفظة (قبيلة) في نظر الأعراب ، وعنـد العرب الشماليين ، اي رابطة دموية تجمع ابناء القبيلة ، ترجع بهم الى جدّ واحد أعلى . بـل يجب علينا ان نفهمها على وجه آخر . يجب ان نفهمها بمفهوم (الملّة) او (الأمة) في المصطلح الاسلامي ، وعلى النحو الذي فهمه المسلمون الأول من مصطلح (امة) و (ملّة) ، اي رابطة تجمع بين شمل جماعات شعرت بوجود روابط دينيـة

---

١ Glaser 484, Skyye I. S. 68.

٢ ال عمران ، الاية ١٠٣

٣ السورة نفسها ، الاية ١١٢ .

وفكرية واقتصادية واجتماعية بينها ، وبوجود إخوة في العقيدة والرأي . على نحو ما نفهمه من آيـة الحجرات : « إنما المؤمنون إخوة »[1] . وذلك كما سبق أن تحدثت عن ذلك قبل قليل .

وترد لفظة (عم) بمعنى شعب في الكتابات النبطية ، وترد بهـذا المعنى في لهجات عربية أخرى[2] . وقد نعت ملوك النبط أنفسهم بـ (رحم عمه) (راحم عمه) ، أي (رحيم شعبه) أو (راحم شعبه) ، بمعنى أنه محب لشعبه رحيم به[3] . وان ملوك النبط رحماء بشعبهم محبّون له .

والذي يجمع شمل الدولة ويقوّيها ويأخذ بها الى الحكم ثلاثة أركان: إلَه أو آلهة، يدافع أو تدافع عن الحاكم وعن رعيته ، وحاكم قد يكون (كاهناً) وقد يكون ملكاً ، وقد يكون أميراً ، وقد يكون سيد قبيلة ، واجبه حكم رعيته وارشادهم وقيادتهم في السلم والحرب ، ثم رعية طيعة طائعة تدين بالولاء للآلهة وللحكام ، ليس لها الاعتراض على (حق الحكم) ، لأنه حق إلهي مقرر ، ولا اعـتراض على قدر الآلهة ومقدراتها : ومن يخالف أوامر السلطان ، كان كمن يخالف أمر ربه ، عاصياً خارجاً عن سواء السبيل ، فيجب تأديبه ، ولو بالقتل ، لأن جزاء من يخرج على أمر الآلهة القتل .

ومن سمات الاخلاص للدولة ذكر أسماء الآلهة التي يتعبد لها الحكام ، أي آلهـة الشعب الحاكم ، تيمناً بها ، وتقرّباً اليها ، وذكر أسماء الحكام في الكتـابات في المناسبات تعبيراً عن ولاء صاحب الكتابة واخلاصه للحاكم . وذكر اسم القبيلة الحاكمة مع اسم القبيلة التي ينتمي اليها صاحب الكتابة ، ليكون ذكرها تعبيراً عن الاعتراف بسيادتها عليه وعلى قبيلته .

أصول الحكم :

المجتمع العربـي الجاهلي : بدوٌ وحضر ، أهل وبر وأهل مدر ، يتساوى ذلك عرب العراق وعرب بلاد الشأم وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب .

---

١ الحجرات ، الاية ١٠ .
٢ GIS, II, 197, 5, Huber 29, Euting 2.
٣ GIS, II, 197, 5, Huber 29, Euting 2.

وفي كل مجتمع من هذين المجتمعين تكوّن نظام من أنظمة الحكم يتناسب مع المحيط ، لأنه نبات ذلك المحيط ، وحاصله ، وما ينبت في مكـــان ينبت وقد اكتسب خصائص التربة وخصائص الجو ، وما يحيط بالنبات من مؤثرات طبيعية أو بشرية .

ومن هنا صارت (الرئاسة) قاعدة الحكم عند أهل الوبر ، و (الملكية) و (رئاسة القرى والمدن) ، أداة الحكم عند أهل المدر .

ولا ينال الحكم في المجتمعات البدوية وفي المجتمعات الصغيرة التي لم تبلغ مرحلة متقدمة من الحضارة ، والتي لم تنل حظاً من الغنى والمهارة في العمـل وفي كثرة الانتاج وتنويعه ، إلا من كان ذا قابلية عالية وذو شخصية قويـة ، وذو أسرة متجانسة متآلفة متماسكة كثيرة العدد ، وذا عشيرة أو قبيلة تندفع في تأييده لمزاياه المذكورة أو لخوفها منه ، أضف الى ذلك : العصبية والرغبة في كسب المال عن طريق الاندفاع معه في غزو القبائل الأخرى . فمجتمع من هذا النوع تكون قيادته بيد (سادته) ، وقد يفرض أحدهم نفسه على الآخرين ، طوعاً أو كرهاً فيكوّن حكومة تنسب في الغالب اليه ، قد يطول أجلها اذا جاء من بعده حكـام أكفاء لهم قابلية وشخصية ، وقد تموت بموته ، لعـــدم كفاءة من يخلفه ، ولأنه كون دولته بشخصيته ، وليس عن دوافع أخرى مثل ايمان بعقيدة واخلاص لها ، أو وجود وعي مشترك وحس بوجوب التكاتف والتآزر ، لتأليف مجتمع متكاتف يعيش فيه المواطنون عيشة مؤاخاة ومواطنية بالعدل والانصاف ، حتى يطول عمـــر تلك الحكومة ، ولما كانت تلك الدولة قد تكونت إما عن مصلحة أو عن خوف وقهر أو عن طمع ، وقد زالت هذه بموت صاحبها ، لذلك يصيبها التفكك وانهيـــار البناء . ومما يؤيد ذلك ردة من ارتد بعد وفاة الرسول عن الاسلام ، فقد كانت حجتهم في ردتهم انهم انما بايعوا الرسول وآمنوا به ، ولم يبايعوا غيره . وبوفاته انتهى حكم البيعة ، فلن يخضعوا لغيره ولن يدفعوا صدقة ولا زكاة ولن يطيعوا أحداً . ولو لم يؤدبهم (أبو بكر) ، بأدب القوة ، لما عادوا ثانية الى الاسلام .

وللحكم الملكي صلة كبيرة بحياة الاستقرار والاستيطان ، فهو لا ينمو ولا يظهر إلا في المجتمعات المستقرة وفي المواضع الغنية بالماء وفي القرى والمدن . فنرى ان حكام قرى فلسطين ومدنها كانوا قد لقبوا أنفسهم بلقب (ملك) في ايام (ابراهيم) مع انهم لم يكونوا إلا رؤساء قرى أو مدن . وقد كان أكثرهم كهنة في الأصل ،

أي حكاماً حكموا رعيتهم باسم الآلهة ، فكان لهم الحكم في الدين وفي تدبير أمور الرعية من الناحية الدنيوية ، ثم عافوا هذا المركز وتركوا المعبد،وخصصوا أنفسهم بالنظر في الأمور الدنيوية .

ولما تقدمت وسائل الحروب وتفنن الإنسان في صنع الأسلحة ، وفي استذلال الحيوان وتسخيره لنقل محاربيه وأسلحتهم ومواد اعاشتهم ، توسعت سلطة كبار الملوك ، وتضخمت حدود ممالكهم ، فظهرت الملكيات الكبيرة : ظهرت على أنقاض (ممالك القرى) و (ممالك المدن) . حيث حكم التأريخ بتسلط الممالك القوية على الممالك الصغيرة،وبأكل القوي منها الضعيف ، لأن الحق للأقوى والبقاء للقوي المكافح المناضل المكالب في هذه الحياة تكالب الكلاب فيما بينها ، لمجرد شعور كلب قوي بتفوقه على كلب آخر غريب أو كلاب غريبة عنه .

ولعب (المال) دوراً خطيراً في ظهور (الملوك الكبار) وفي تكوين (الحكومات الملكية الكبيرة) ، ونضيف اليه شخصية صاحب المال والطبيعة التي عاش بها ، من برودة وحرارة وتبدل في الضغط الجوي ، ومن تربة ومعدن ونبات وماء . فالمال وحده لا يكفي لخلق دول كبرى ، وهو لا يدوم إذا لم يقرن بعقل فطن خلاّق يعمل على الإيجاد والتكوين وتسخير الطبيعة في خدمته وخلق قوة تكون سنداً له وسداً منيعاً يقف حائلاً منيعاً أمام المعتدين . والاستفادة من المال بتشغيله بحكمة وبعلم ، وبإيجاد موارد جديدة تحل محل الموارد القديمة إن نفقت .

وقد كان ظهور الحكومات الملكية الكبيرة في الأرضين الغنية بخيراتها ذات الماء الغزير والجوّ المساعد على العمل . فوسعت رقعتها وطمعت في غيرها فابتلعتها وقوّت نفسها بخيراتها وعبأت كل قواها لخدمتها ، وأخذت تكتسح غيرها وتتوسع وكونت الممالك الكبير المشهورة في التأريخ.وقد سمح بعض ملوك الحكومات الكبيرة لملوك الممالك الصغيرة بالاحتفاظ بحمل لقب (ملك) ، على أن يكون ذلك مقروناً باعتراف أولئك الملوك بحماية الملوك الكبار لهم،وبوجوب عدم الخروج على طاعتهم وبلزوم الاشتراك معهم في الحروب إن طلب منهم الاشتراك فيها ، وبدفع جزية مرضية لهم . فلم تتمكن الحكومات الصغيرة التي عاشت على التجارة والاتجار من العيش بأمن وسلام ، إذ طمعت فيها الدول القوية ، فأرسلت اليها من يخيرها بين الاستسلام والطاعة أو الهلاك واحراق الدور وإنزال الدمار . وقد رأينا أمثلة عديدة على ذلك فيما سلف من هذا الكتاب . من ذلك تهديد حكومات العراق

لحكومات مدن الخليج، وتهديد الرومان واليونان للنبط . وحملة (أوليوس غالوس) على اليمن ، لضم أصدقاء أغنياء الى انبراطورية الرومان ، يؤدون لها الخراج ويقدمون لها ما عندهم من ذهب ابريز ، وإلا فالنار والخراب والدمار والقتل . فلا مجال للحكومات الغنية الصغيرة من العيش بأمن وسلام . وليس عندها سوى الإختيار بين أمر من أمرين . فإما دفع جزية ثقيلة ترضي القوي ، واما الاستسلام وإنزال النار بها والدمار .

أما البوادي والأرضين القفرة الفقيرة القليلة الماء ، فلا يمكن أن تنبت بها (ممالك) كبيرة، لعدم توفر مستلزمات المعيشة والتجمع الكبير فيها ، لهذا صارت حكوماتها حكومات (رئاسات) رئاسة قبيلة أو أحلاف . وقد يحلو للرئيس أن يختار له (ملك) ، لقب لا يعني في الواقع العملي أكثر من سيد قبيلة . وحكومات باطن جزيرة العرب هي من هذا النوع في الأكثر . أما الملكيات فقامت في مواضع الحضارة ، حيث التربة الصالحة الخصبة المساعدة على حياة التجمع والاستقرار . ووجود حضر ، يقبلون بالطاعة والخضوع لحكم حاكم ، ومال يجبى من الناس ليستعين به الحاكم على الانفاق على نفسه وعلى جيشه وعلى من ينصبهم لادارة الأمور ، قامت تلك الملكيات في العراق وفي بلاد الشأم وفي أطراف جزيرة العرب وفي مواضع الماء من نجد كاليمامة . وقد تكلمت عنها في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب .

أما الرئاسة ، فهي درجات تبدأ برئاسة بيت ، وتنتهي برئاسة قبيلة . ولكل رئيس سلطان على أتباعه وحقوق وواجبات . وعليه أيضاً حقوق وواجبات يجب أن يوفي بها لأتباعه ومن هم في عنقه ويمينه . والرئيس هو (بعل) و (رب) و (سيد) جماعته والمسؤول الشرعي عن أتباعه ، وهو ممثلهم ولسانهم الناطق باسمهم وحاميهم في الملمات .

وقد عرف (هشام بن المغيرة) بـ (رب قريش) ونسبت قريش اليه في الجاهلية ، فقال الشاعر :

أحاديث شاعت من معدٍ وحمير وخبّرها الركبان حيّ هشام

وذلك تعظيماً له واحتراماً لشأنه[1] .

---

١ الاشتقاق (ص ٩٤) .

ويعرف رئيس القبيلة بـ (سيد القبيلة) ، وسادات القبائل هم رؤساء القبائل. وقد ينعت رجل بـ (سيد العرب) وبـ (سيد مضر) وبـ (سيد أهل الوبر)، وذلك للتعبير عن سلطانه وعن مكانته وعن حكمه لقبائـــل كثيرة عديدة . فقد نعت (الأفكل) ، وهو (عمرو بن جعيـــد) بـ (سيد ربيعة) لرئاسته على ربيعة[1] . وعرف (حذيفة بن بدر) بـ (سيد غطفان) ، وكان يقال له : (رب معد)[2] .

وعرف (قيس بن عاصم بن سنان المنقري) بـ (سيد أهل الوبر) ، فلما وفد على رسول الله في وفد (تميم) ، قال رسول الله : « هذا سيد أهل الوبر » . وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، لأنه سكر فعبث بذي محرم له[3] .

وعرف حاكم (تدمر) بـ (رش تدمور) ، أي (رأس تدمر) و(رئيس تدمر) ، في الكتابات التدمرية القديمة . ثم عرف بـ (ملك) ، في الكتابات المتأخرة المدونة وصار اللقب الرسمي لحكام (تدمر) في ايام (الزبّاء) فما بعد، الى احتلال الرومان لتدمر وإلغائهم الحكم التدمري[4] .

ولقب (أذينة) ملك (تدمر) نفسه بـ (ملك ملكا) أي (ملك الملوك)[5] أيضاً ، تشبهاً بملوك الفرس وبملوك حكموا قبلهم مثل الملوك الأشوريين ، واتخذ لنفسه ألقاباً يونانية لاتينية تقليداً للرومان . ولم نعثر في النصوص العربية الجنوبيـة على لقب (ملك الملوك) . ويظهر ان الملوك العرب لم يتلقبوا بهذا اللقب الأعجمي .

المكربون :

وترينا أقدم الكتابات العربية ان العربية الجنوبية حكمها قبل الملوك أناس حكموا حكماً مزدوجاً ، أي حكماً دينياً ودنيوياً ، عـــلى نحو ما حدث في العراق وفي

---

١ الاشتقاق (ص ١٩٧) .
٢ المعارف (ص ٣٨) .
٣ معجم الشعراء (ص ٣٢٤) .
٤ المشرق ، السنة الاولى ، تموز ١٨٩٨ م . (ص ٥٩٠) .
٥ Die Araber II, 3 254

مصر وفي أماكن أخرى من الشرق ، قبل أن ينتقل الحكم الى الملوك ، ويتحول الى حكم زمني ، ينصرف فيه الملك الى الأمور الزمنيـــة لرعيته ، تاركاً الشؤون الدينية لرجال الدين ، حكموا الأرض باسم السماء،وحكموا حكم الساسة والحكام ، ونطقوا باسم الآلهة ، فحكمهم حكم إلهي مقدس ، عـــلى أتباعهم ومن يؤمن بهم إطاعتهم ، لأنهم ألسنة الآلهة الناطقة على هذه الأرض[1] .

ويعرف هذا الكاهن الملك بـ (مكرب) ، أي (مقرب) . وقد حصلنا من كتابات المسند على أسماء عدد من (المكربين) ، غير ان تلك الكتابات خرساء، لم تبح لنا بشيء ما عن أصول حكمهم للمعابد ولإدارة الدولة ولا عن كيفيـــة تلقيهم الأوامـر الإلهيـــة التي يطلبون من أتباعهم تنفيذها ، هل كانت وحياً من الآلهـة ، يحملها اليهم ملائكة مقربون ، أو إلهاماً يتجلى في نفوسهم فينطق بـــه المكربون ويبلغونه للناس،أو صوتاً يخرج من رَئِـيّ أو صنم أو ما شاكل ذلك يسمعه (المكرب) فيفسره للناس على طريقة الكهان ؟

وليس في نصوص المسند تعليل ما للدوافع والأسباب التي حملت آخر (مكرب) في كل دولة من الدول العربية الجنوبية على تغيير لقبه القديم ، الموروث عن آبائه، واتخاذ لقب له جديد ، لقب (ملك) ، وهو لقب يشير الى الحـــكم الدنيوي فقط ، والى ابتعاد الملك عن الحكم الديني وتركه لغيره . غير اننا نستطيع أن نقول باحتمال تأثر هؤلاء (المكربين) بالمظاهر الخارجية التي كانت عند الدول المعاصرة التي لقبت حكامها بلقب ملك ، وهي دول كبيرة ذات جاه واسم وسلطان فأراد أولئك الحكام ، حكام حكومات اليمن ، التشبه بهم ، ومحاكاتهم في المظهـر ، فغيروا لقبهم ، ليظهروا أنفسهم انهم مثلهم ، وانهم ليسوا أقل شأناً من أقرانهم الملوك .

ولا يظن أن التغيير الذي حدث فأدى إلى إبدال حكم (المكربين) بحكم الملوك كان تغييراً قسرياً ، أي نتيجـــة انقلاب عسكري أو ثورة ، ذلك لأننا نعلم أن آخر مكرب من مكربـي سبأ كان هو المكرب (كرب ال وتر) (كرب ايل وتر) . وقد كان هذا المكرب أول من افتتح العهد الملكي في سبأ ، وأول من حمل لقب (ملك) وذلك يدل على أنه هو الذي اختار اللقب الجديد ، واستبدله باللقب القديم .

---

١ A. Grohmann, S. 122.

ولم يكن (المكرب) رجل دين بالمعنى المفهوم من الجملة ، أي عالماً بأمور الدين فقيهاً بها كرس وقته لها ، ومتولياً إمامة الناس في صلواتهم وفي أداء الشعائر الدينية للأرباب في معابدها ، مقدماً القرابين بنفسه اليها ، بل يرى بعض الباحثين أنه مجرد منصب له صبغته الدينية ، وأنه يشبه منصب (الخليفة) في الإسلام ، حيث كان الخليفة يعد (أمير المؤمنين) ورئيس المسلمين . ولم يكن مع ذلك أعلم المسلمين بأمور الدين ولا أفقههم بالأحكام ، وإنما هو (خليفة الله) في أرضه . وكذلك كان المكربون خلفاء الآلهة على الأرض[1] .

وقد استتبع انتقال الحكم من (المكربين) الى الملوك ، حدوث تغيير في أصول الحكم . فانقطعت صلة الملك بالمعبد ، ولم يعد الرئيس المباشر له ولرجال الدين ، وإن بقي الملك حامي الدين والمعبد . لما للمعبد من ارتباط بالدولة ولما للاثنين من مصالح مشتركة مترابطة ، إذا اختلت أصاب الأذى الجهتين . وانصرف رئيس المعبد الى ادارة المعبد وأملاكه الكثيرة الواسعة ، والى جباية الضرائب الدينية ، أي حقوق الآلهة على الناس . وهي حقوق واجبة مفروضة . وانصرف الملك الى ادارة الدولة ، وجباية حقوقه على شعبه . وادارة أملاكه الخاصة وأملاك الدولة، التي هي أملاك الملك أيضاً . حيث لم يفرق الملوك بين جيبهم الخاص وبين جيب الدولة . لأن الدولة الملك ، والملك الدولة . وبيت المال هو بيت مال واحد ، للملك أن يتصرف به كيف شاء .

الملك :

وأما (الملك) ، فهو الرئيس الأكبر والإنسان الأعلى في مجتمعه . ولفظة (ملك) من الألفاظ العربية القديمة التي ترد في جميع اللهجات العربية[2] ، وهي أيضاً من الألفاظ التي ترد في أغلب اللغات السامية . وقد تلقب بها ملوك العربية الجنوبية، وتلقب بها ملوك الحيرة وملوك آل غسان وملوك كندة ، بل طمع في هذا اللقب أمراء وسادات قبائل ، أعجبهم فلقبوا أنفسهم به .

---

١ A. Grohmann, S. 122.

٢ اللسان (١٢/٣٨١) ، (ملك) ، تاج العروس (٧/١٨٠ وما بعدها) ، (ملك)، مقدمة ابن خلدون (١٤٣) ، تفسير الطبري (٢/٥٩٥) ، روح المعاني (١٣/٢٢٣) (١٦/٩) .

ولا يعني هذا أن حكم الملك كان دائماً حكماً شاملاً واسعاً بالمعنى المفهوم من هذا اللقب، فقد كان سلطان الملك في بعض الأحيان لا يتجاوز سلطان سيد قبيلة ، أو سلطان صاحب قرية أو أرض . وعلى ذلك نجد في العربية الجنوبيـــة وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب عشرات من أمثال هـــؤلاء الملوك يحكمون قبائلهم او أرضهم بهذه النعوت والصفات المغرية المحببة الى النفوس والقلوب ، ذلك لأنهم أحبوا هذا اللقب ، فلقبوا أنفسهم به ، وصاروا ملوكاً ، وهم في الواقع سادة قبائل أو أرض صغيرة . ونجد في كتب السير والتواريخ اسمـــاء جملة (ملوك) عاشوا قبيل الإسلام وعند ظهوره ، لم يكونوا في الواقع سوى سادات (شيوخ) قبائل أو قرى ، ولم يكن لهم على من حولهم نفوذ أو سلطان .

ومعنى (ملك) ، الرأي والمشورة والنصيحة . و (مَلَكَ) ، بمعنى قدّم رأياً أو نصيحةً أو مشورة ، وذلك في بعض اللغات السامية . وتعني كلمة (شارو) (شرو) ، (الملك) في الأشورية ، وهي في معنى (الحكيم) في الأصل ، أي في المعنى المتقدم . وتعني كلمة (مليخ) (ملخ) ، أي (ملك) في العبرانية ، الحكيم الذي يقدم رأياً وحكمة ومشورة ، فهي في معنى Adviser و Counseller في الانكليزية[1] . إذ كان الملوك بمنزلة الحكـــماء القضاة في شعوبهم ، ثم تخصصت بالحاكم الذي يحكم شعبه على النحو المفهوم من اللفظة عندنا .

وقـــد وردت لفظـــة (ملك) في نصوص المسنـــد . وردت على هـــذه الصورة : (ملكن) ، أي (الملك) ، و (ملكم) ، أي (ملكٌ) . ووردت على هذه الصورة : (ملك) في النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية . و(ملكو) في النصوص النبطية . أما في النصوص العربية الشمالية ، فإن أقدم نص وردت فيه هذه اللفظة ، هو نص (أم الجمال) ،الذي يعود عهده الى سنة (٢٥٠) أو (٢٧٠) بعد الميلاد[2] . وهو شاهد قبر رجل اسمه (فهر بن سلى مربّـي جذيمة ملك تنوخ) ونص (النمارة)الذي هو شاهد قبر الملك (امرؤ القيس)،وقد دوّن سنة(٣٢٨)للميلاد[3].

---

١ Hastings, p. 515.

٢ السامية (١٣٩) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتطوره الى ما قبـــل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، مايو ١٩٣٥ م ، (سنة ٢٧٠ م) ،
De Vogue, Syrie Centrale, p. 1, 15, II.

٣ Littmann, Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, p. 37,
Cantineaue, Nabatéen et Arabe, p. 27.

ولا نعرف في الزمن الحاضر مكانة درجة من يحمل لقب (اخ ملكا) أي (أخي الملك) الوارد في النصوص النبطية . فلسنا ندري أكانت تعني (وصاية) او (وزارة) او مقرباً من الملك ، ام تعني ان حامله من الأسرة المالكة[1] .

ونطلق لفظة (تبع) ، والجمع (التبابعة) ، على ملوك حمير ، بل تطلقها الموارد الإسلامية في بعض الأحيان على كل ملوك اليمن . فهي في معنى (ملك) . ولا يطلقونها على غيرهم ، أي على الملوك الآخرين من ملوك العرب . فهي إذن اصطلاح خاص بأولئك الملوك . كما اصطلحوا على تسمية كل من ملك الحبشة (النجاشي) ، وكل من ملك الروم (قيصر)، وكل من ملك الفرس (كسرى) . وقد ذكر علماء اللغة في تفسيرها : (وتبع كانوا رؤساء ، سمّوا بذلك لاتباع بعضهم بعضاً في الرئاسة والسياسة . وقيل تبع ملك يتبعه قومه والجمع التبابعة)[2] . وورد في القرآن الكريم : (وقوم تبع) في جملة الأقوام التي كذبت فحق عليها وعيد[3].

وذكر بعض أهل الأخبار (أن العرب لم تكن تسمي أحداً تبعاً حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ، وقيل : حتى يتبعه بنو جُشَم بن عبد شمس) . فإن لم يكن كذلك سمي ملكاً . وأول من لقب منهم بذلك (الحارث بن ذي شمر) وهو الرائش . ولم يزل هذا اللقب ملازماً لملوكهم الى أن زالت مملكتهم بملك الحبش اليمن[4] .

وذكر أن العرب كانت تسمي الملك (الحصير) كذلك . لأنه محجوب عن الناس ، أو لكونه حاصراً ، أي مانعاً لمن أراد الوصول اليه . قال لبيد .

وقاقم غلب الرقاب كأنهم جنّ على باب الحصير قيام

والمراد به النعمان بن المنذر . وروي لدى طرف الحصير قيام . أي عند طرف بساط النعمان[5] .

---

١ Die Araber I, S. 288.

٢ المفردات (ص ٧١) ، اللسان (٣١/٨) ، تاج العروس (٢٨٧/٥) ، المحكم (٤٤/٢) ، صبح الاعشى (٢٣/٥) ، مجمع البيان ، للطبرسي (٦٦/٩ ، العبر (١١٢/٢) .

٣ الدفان ، ٤٤ ، الاية ٣٧ ، سورة ق ، رقم ٥٠ ، الاية ١٤ ، روح المعاني (١١٦/١٥ وما بعدها) ، الطبري (٤٠٤/١) ، ابن الاثير ، الكامل (١٥٦/١ وما بعدها) .

٤ صبح الاعشى (٤٨٠/٥) ، ابن خلدون ، العبر (القسم الاول من المجلد الثاني) ، (ص ٩٢ وما بعدها) مروج الذهب (٨٨/٢) .

٥ تاج العروس (١٤٤/٣) ، (حصر) .

وذكر بعض أهل الأخبار أن (حمير) تسمي الحاكم (الفتاح) بلغتها[1] .

والعادة ان الملكية وراثية ، تنتقل من الآباء الى الأبناء ، ويتولاها الابن الأكبر في الغالب . فإذا حكم هذا وتوفي ، انتقلت الى ابنه الأكبر ، وهكذا . وبذلك يحرم إخوته الآخرون ، إلا إذا نص الأب الملك على خلاف ذلك ، كأن يذكر اسم الذي سيخلفه،أو يعين جملة أبناء او أشخاص يحكمون من بعده على التوالي، فإذا توفي الابن الأكبر مثلاً ، انتقل الحكم الى اخيه الذي يليه ، وهكذا الى نهاية الوصية . وقد يوصي المتوفى لأخيه من بعده ، أو لإخوته ، بدلاً من ابنه او اولاده ، فنظام الحكم اذن نظام وراثي في العادة ، ينتقل طبيعة الى الابن الأكبر للحاكم المتوفى ، إلا إذا حدث خلاف ذلك ، لوصية يوصيها المتوفى ولرأي يراه، او لأحوال قاهرة كأن يكون الشخص المتوفى عقيماً لا عقب له ، ففي مثل هذه الحالة ينتقل الحكم الى أقرب الناس اليه ، بحسب وراثة الدم ، او بحسب رأي الأسرة التي ينتمي اليها المتوفى.فيكون عندئذ لها وللمسنين والوجهاء الرأي والاختيار[2] .

والعادة ان الحكم يكون في الأسر الكبيرة الرفيعة ، ينتقل إما من أب الى ابن على حسب العمر ، وإما الى أخ او غيره من افراد الأسرة . وقد ينشب خصام بين افراد هذه الأسرة في موضوع تولي العرش ، ولا سيما في العهود القديمة ، حيث لم يكن العرف قد استقر على ضرورة انتقال الحكم من الأب الى ابنه الأكبر. فتنقسم الأسرة ، وقد يطول انقسامها ، عند تكافؤ المتخاصمين واستعانة كل فريق على الآخر بمؤيدين اقوياء ، فيدعي حق الحكم له ، ويلقب زعيمه بلقب (ملك) . وتفتح هذه الخصومات الأبواب لزعماء الأسر الكبيرة الأخرى،لمنافسة الأسر الحاكمة على الحكم ، فتدعيه ايضاً لنفسها وقد تنجح مدة وقد تنجح في انتزاعه من الأسر الحاكمة وابتزازه لنفسها .

وقد يقارع تلك الأسر شخصٌ من سواد الناس من المغمورين ، وينتزع الحكم من أصحابه ، وذلك بفضل كفاية فيه ، وقوة شخصية دفعته للتزعم وللطموح . وفي تأريخ الحكم في العربية الجنوبية أمثلة عديدة على ذلك. وقد يصير هذا الشخص مؤسس أسرة حاكمة جديدة ، إذ ينتقل الحكم منه الى أبنائه او أعضاء أسرته

---

١ تاج العروس (٢/١٩٥) ، (فتح) .

٢ Grohmann, S. 128, Ryckmans, L'institution, p. 39, 41.

بعد وفاته ، وقد يقتصر الحكم عليه ، فإذا توزع وقتل او مات ، قتل حكمه بقتله ، ومات اغتصابه له بموته .

وقد أرتنا بعض كتابات المسند أن العرب الجنوبيين ، لم يجدوا غضاضة في تلقب أب وابنه او اب وأبنائه او أخ وإخوته بلقب (ملك) في وقت واحد ، فقد انتهت الينا كتابات عديدة ، وفيها أب يحمل لقب ملك ، ومعه أبناؤه يحملون هذا اللقب كذلك ، كما انتهت الينا كتابات يحمل فيها أخ وإخوته لقب (ملك) . وقد يدلّ ذلك على اشتراك المذكورين في الكتابة إشتراكاً فعلياً في الحكم ، غير ان ذلك لا يعني الحتمية ، فقد يجوز أن يكون (الملك) مجرد لقب يمنح لذلك الشخص او لأولئك الأشخاص ليشير الى صلة الشخص أو الأشخاص به ، او الى منزلته ومنزلتهم بين الناس .

وقد يكون ذلك للتخفيف عن أعمال الملك بسبب من كثرة عمله او من عدم تمكنه من القيام بأعمال الملك كلها لضعف شخصيته وقابلياته ، او لمرض ألمّ به، او لأن الملك أراد بذكرهم معه تدريبهم على أعمال الحكم ، حتى يكونوا قد خبروا أمور الملك إذا انتقل الحكم اليهم ، مع بقاء الملك الأصل في عرشه ومكانه، يمارس أعماله على نحو ما يريد .

ولم يصل الينا نص ما من العربية الجنوبية يشير الى وجود اسم ملكة على عرش إحدى الحكومات التي تكوّنت هناك . اما خارج العربية الجنوبية ، وخارج جزيرة العرب ، فقد وردت في الكتابات الآشورية وفي كتابات غيرها أسماء ملكات عربيات ، وكل ذلك دليل على ان العرب الشماليين لم يجدوا ما يمنعهم من تعيين ملكات عليهم ، وان ملكات ولَينَ حكومات .

وقد كان ذلك قبل الإسلام بزمن طويل . أما في الأيام القريبة من الإسلام ، فلم نعثر على اسم ملكه حكمت فيها ، لا في الكتابات ولا في القصص الذي يرويه الاخباريون عن تلك الأيام .

ولا نعرف في جزيرة العرب نظاماً انتخابياً عاماً ينتخب الشعب فيه ملكه على النحو الذي نفهمه في الزمن الحاضر ، او على النحو الذي كان معروفاً عند الرومان او اليونان في زمن من الأزمان ، انتخاباً لأمد محدود معين بسنين او لأمد طويل يحد بحياة الانسان ، فلم يرد نصٌ ما فيه شيء من ذلك ، ولم يرد في قصص الأخباريين ما يشير الى وجود مثل هذا الانتخاب .

ولا نعرف أيضاً ان المزاود وهي المجالس او طبقة قادة الجيش او سادة المدن والقبائل كان لها رأي في تعيين الملوك ، او إقرارهم على نحو ما كان يجري في الدولة البيزنطية . ولا نعرف كذلك أكان لأحد حق اقالة الملوك وتنحيتهم عن عرشهم اذا تبين انه غير صالح لتولي الحكم لسبب من الأسباب ، فإننا لم نعثر حتى الآن على نصوص تتحدث عن مثل هذه الأمور . وأما قيام شخص من الأسرة المالكة او من غيرها بمنافسة الملك او بالثورة عليه وانتزاع الملك منه ، فإن ذلك شيء آخر ، يعود الى استعمال القوة والخروج عن الطاعة ، وهما بالطبع من الأمور المخالفة في كل عهد وزمان .

لقد تحدث (الهمداني) عن طريقة من طرق تعيين الملك عند (حمير)،فقال : « وبأسفل المعافر قصرُ ذي شمر ، ويدخلون في قيالة حمير ، وكانت أقوالها تكون في كل عصر ثمانين قيلاً من وجوه حمير وكهلان ، فإذا حدث بالملك حدث ، كانوا الذين يقيمون القائم من بعده ويعقدون له العهد . وكان قيام الملك من قدماء حمير عن إجماع رأي كهلان ، وفي الحديث عن رأي اقوال حمير فقط ، وكانوا اذا لم يرتضوا بخلف الملك ، تراضوا لخيرهم ، وأدخلوا مكانه رجلاً ممن يلحق بدرجة الأقوال ، فيتم الثمانين قيلاً ، ولم يكن هذا في حمير إلا مرات يسيرة لأن الملك لم يكن يعدو آل الرائش ، إلا ان يُتوفى الملك واولاده صغار، او يكل[1] ، فيفعل ذلك حتى يتدبر في سواه من آل الرائش »[2] .

وما ذكرته عن حكاية (الهَمْداني) عن كيفية تعيين الملوك في حمير ، يؤيد كون الملكية في اليمن ملكية وراثية تنتقل في الأصل بالإرث من الأب الى الابن، إلا في الحالات الطارئة ، مثل موت ملك فجأة وأولاده صغار ، او موته وهو عقيم لا خلف له ، ولم يوصِ لأحد بالحكم من بعده ، فيكون الرأي لسادات المملكة الذين جعل (الهمداني) عدة مجلسهم ثمانين قيلاً ، فيختارون للملك من يرون أنه أكفأ الناس للملك ، وينصبونه ملكاً . وقد رأينا انه نص في حديثه هذا على أن ما ذكره يتناول حالات خاصة ، وقد وقع في مرات يسيرة ، لأن الملك لم يكن يعدو الإرث المعهود عنهم الذي ينتقل في الأسرة المالكة .

---

١ أي يموت عقيما لا أولاد له .
٢ الاكليل (٢/١١٤) .

ولعلّ هذه الظروف الطارئة هي التي حملت الملك على تنصيب ابن له او ابنين أو أخ له ملكاً معه يلقب بلقب الحكم في أثناء حياته ، ويذكر ويذكرون بعده في الكتابات . وغايته من هذا النص هو أن الشخص المذكور اسمه بعد اسم الملك، هو الذي يرث الملك بعد وفاة الملك لسبب من الأسباب ، فلا يقع حينئذ خلاف ما في تعيين الشخص الذي سيلي الملك . ولعل ذلك كان يحدث عند مرض الملك أو عند تقدمه في السنّ وشعوره بالعجز والكلال ، او لكونه محارباً فهو يخشى أن يقتل في المعارك ، وما أشبه هذا ، فكان يحتاط لذلك بالنص على اسم من يليه وتعيينه معه ليعينه في تحمل أعباء الحكم ، حتى إذا حدث له حادث يكون قد تدرب على ادارة الملك .

وذكر بعض اهل الأخبار انه لم يكن لملوك اليمن نظام ، وانما كان الرئيس منهم يكون ملكاً على مخلافه لا يتجاوزه . وإن تجاوز بعضهم عن مخلافه بمسافة يسيرة من غير ان يرث ذلك الملك عن آبائه فلا يرثه أبناؤه عنه ، وانما هو شأن شذاذ المتلصصة ، يغيرون على النواحي باستغفال اهلها ، فإذا قصدهم الطلب لم يكن لهم ثبات . وكذلك كان امر ملوك اليمن ، يخرج احدهم من مخلافه بعض الأحيان ، ويبدو في الغزو والإغارة ، فيصيب ما يمرّ به ، ثم يرجع عنه ، عند خوف الطلب ، زاحفاً الى مكانه من غير ان يدين له احد من غير مخلافه بالطاعة او يؤدي اليه خراجاً[1] .

وقد اخذوا وصفهم هذا للملوك من الحالة السياسية التي كانت في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية ، ايام تدهور الأوضاع بعد الميلاد ، ولا سيما في أوائل القرن السادس للميلاد الى دخول العربية الجنوبية في الاسلام . فقد استبد الحكام وأصحاب الاقطاع بالمخاليف ، ولقبوا أنفسهم بألقاب الملك ، وأخذ بعضهم يغير على بعض، ويغزو ارض جاره على طريقة الأعراب .

والسيادة على القبيلة ، هي كالملكية تنتقل الى مستحقها بالوراثة في الغالب . فإذا توفي سيد قبيلة ، انتقلت سيادتها الى ابنه الأكبر . هذا عامر بن الطفيل ، وهو ابن سيد قبيلة ، وقد صار سيدها بعد وفاة والده ، يفتخر بنفسه ، ويذكر

---

١ ابن خلدون ، العبر ـ القسم الاول من المجلد الثاني (ص ١١١ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٥٦ م) .

انه ورث السيادة من وراثة ، إذ أتته من والده ، هذا صحيح ، وليس في ذلك من شك ، لكن قومه لم يسوّدوه ولم يعيّنوه مكان ابيه ، لهـذا السبب ، وانما سوّدوه لأنه كان يحمي حمى قبيلته ويذب عنها،ولأن فيه شروط السيادة وحقوقها ، فهو سيد قومه ، قبل ان تأتي السيادة اليه من والده :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سوّدتني عامـر من وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمـي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب[1]

وهذا (بشامة بن الغدير) ، خال (أبـي سلمى) والـد زهير ، يقول في شعر له :

وجدت أبي فيهم وجَدّي كليهما يطاع ويؤتى أمره وهو مُحْتبي
فـلم أتعمّل للسيـادة فيهم ولكن أتتني طائعاً غير متعب[2]

فهو رئيس ابن رئيس قبيلة،أتته السيادة من أبيه طائعة ، لفضل فيه واستحقاق لها ، دون ان يعمل وان يركض للحصول عليها . فالسيادة اذن عند العرب ، تتبع نظام الارث في الغالب ، إلا اذا حدث حادث يجعل أهـل بيت السيادة ، يعرضون عن الإبن الأكبر الى غيره ، كأن يكون الابن الأكبر معتوهاً او سفيهاً او ضعيفاً ، واخوته او أقرباؤه أقوى منه .

الأمراء :

والأمير ذو الأمر ، اي الآمر . وأولو الأمر : الرؤساء واهل العلم . وذكر ان الأمير الملك لنفـاذ أمره ، والجمع امراء ، وهو يأمر إمارة[3] . ولما كان

---

١ الحيوان (٢/٩٥) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٢/٩٦) ، (هارون) .
٣ اللسان (٤/٢٧ وما بعدها) ، (أمر) ، تاج العروس (٣/١٨ وما بعدها) ، (أمر) ، القاموس (١/١٣٦) ، تفسير الطبري (٥/١٤٨) ، ابن الاثير ، النهاية (١/٤١) ، (٢/١٨٩ وما بعدها) .

الخليفة في الإسلام اميراً على المسلمين ، نعت بـ (أمير المؤمنين) . ولم ترد اللفظة في النصوص الجاهلية بمعنى (ملك) . ويظهر انها كانت تعني عند اهل الحجاز الرئيس الآمر . وقد ورد في كتب التأريخ ان الأنصار لما اختلفوا مع المهاجرين بعد وفاة الرسول على (الإمارة) واجتمعوا في (سقيفة بني ساعدة) قالوا : « منا أمير ومنكم أمير »[1] . وفي استعمال الأنصار لهذه اللفظة ، دلالة على وجودها عند الجاهليين واستعمال اهل الحجاز لها بهذا المعنى في ايام الجاهلية .

ويظهر من الموارد (البيزنطية) ومن روايات اهل الأخبار ، أن الملوك الغساسنة والملوك من (آل نصر) ، اي ملوك الحيرة ، لم يكونوا ملوكاً بالمعنى العلمي الصحيح المفهوم من الكلمة ، وإنما كانوا (عمّالاً) ، إذا كاتبهم الروم أو الفرس ، لقبوهم بـ (عامل) . إذ عينوهم عمالاً على الأعراب ولم يعينوهم (ملوكاً) . فلقب (ملك) من الألقاب الخاصة بملوك الروم لم يمنحوه لغيرهم[2]. وكذلك كان الشأن عند الفرس . نعم لقد ذكر المؤرخ (بروكوبيوس)Procopius ان القيصر (يسطنيانوس) Justinianus منح (الحارث بن جبلة) لقب (ملك) ولقب بعض الكتبة اليونان سادات غسان باللقب المذكور . غير ان هذا التلقيب لا يمكن ان يكون دليلاً على أن الدولة البيزنطية كانت تطلقه عليهم بصفة رسمية وانه كان لقبهم الرسمي المعترف به عند الدول الأجنبية . ومن هنا شك المستشرق (نولدكه) في صحة رواية (بروكوبيوس) بشأن منح الحارث لقب (ملك)، ذلك لأن لقب (ملك) كان خاصاً كما ذكرت بقياصرة البيزنطيين ، فلا يمنح لغيرهم ، ولأن الوثائق الرسمية لم تطلق هذا اللقب عليهم[3] . ثم إن نص أبرهة الشهير الذي تحدثت عنه أثناء حديثي عن (ابرهة) ، لم يلقب (المنذر) ولا (الحارث بن جبلة) بلقب (ملك) ، بل لم يلقبها بأي لقب ، بما في ذلك لقب (عامل) . وهذا مما يدل على أن (آل نصر) و (آل غسان) وإن لقبوا أنفسهم بلقب (ملك) أو لقبهم العرب به ، إلا ان ذلك التلقيب لم يكن

---

١ الطبري (٣/٢١٨) ، (ذكر الخبر عما جرى بين المهاجرين والانصار في أمر الامارة في سقيفة بني ساعدة) .

٢ غسان (ص ١٢) ، المشرق : السنة الاولى ، الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ م ، (ص ٤٨٥) ، جواد علي تأريخ العرب قبل الاسلام (٤/١٢٩) .

٣ غسان (ص ١٢) ، جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٤/١٢٩) .

بصفة دولية رسمية ، وانما كان بصورة غير رسمية وعلى سبيل التجمل بهذا اللقب والتشبه بالملوك الأجانب ، استعمله النـاس من باب التزلف والتقرب الى اولئك الحكام ، او انهم نظروا اليهم من وجهة نظرهم الخاصة ، فدعوهم ملوكاً لأنهم كانوا رعيتهم وكانوا هم مالكي رقبتهم . ومن هنا اعترفوا بهم ملوكاً ، أمـا الدول الأجنبية فقد اعتبرتهم مجرد عمال وسادات قبائل .

والذي صح اطلاقه على أمراء الغساسنة ، وثبت وجوده في الوثائق الرسمية ، هـو لقب (بطريق) Patricius ، ولقب (عامـل) أو رئيس قبيلـة Phylarcos = Phylarkos = Phylarchus مقروناً بنعت من النعوت التابعـة له ، أو مجرداً منه ، كالذي جاء عن المنذر الذي حـكم بعد الحارث بن جبلة (فلابيوس المنذر البطريق الفائق المديح ، ورئيس القبيلة) ، و (المنذر البطريق الفائق المديح ، ، وما ورد عن الحارث (الحارث البطريق ورئيس القبيلة)[1] .

ولقب (البطريق) من ألقاب الشرف الفخمة عند الروم ، ولذلك فلم يكن يمنح إلا لعدد قليل من الخاصة ، ولصاحبـه امتيازات ومنزلة في الدولة حتى ان بعض الملوك كانوا يحبذون الحصول على هذا اللقب من القيصر ، ويفضلونه على غيره من الألقاب[2] .

ويلاحظ أن بعض كتبة اليونان أطلقوا لقب (ملك) عـلى الأمراء العرب ، مثل (ماوية) فقد لقبوها بـ (ملكة) . ولم يستعملوا كلمة (فيلارك) (فيلارخ) (فيلاركس) (فيلاركوس) التي تعني (العامل) أو (سيد قبيلة). والظاهر انهم نهجوا في ذلك نهج الكتبة (السريان) ، فقد لقبوا سادات القبائـل العربية بلقب (ملك) على نحو ما نجده في الشعر العربي[3] . ويظهر ان عرب العـراق كانوا قد لقّبوا حكام (الحيرة) بلقب (ملك) و (ملوك) ، وأن عـرب بلاد الشأم لقّبوا حكامهم الغساسنة بلقب (ملك) كذلك ، وذلك على سبيـل التفخيم والتعظيم كما ذكرت ، وباعتبـار انهم حكامهم ومالكو أمرهم . كما لقب من خضع لـ (آل آكل المرار) حكامهم من هذه العائلة بلقب (ملك) . وكما

---

١ غسان (ص ١٢) .
٢ المشرق : السنة الاولى : الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ م (ص ٤٨٥) .
٣ غسان (ص ١٢) ، المشرق : السنة الاولى : الجزء ١١ ، حزيران ١٨٩٨ م (ص ٤٨٥) .

لقب بعض سادات القبائل أنفسهم بلقب (ملك) ، ولم يكونوا ملوكاً ، بل كانوا سادات قبائل و (أمراء) .

ومما يؤيد أن حكـــام الحيرة وغسان ، لم يكونوا (ملوكاً) في نظر الدول الأجنبية بل عمالاً ، ما نجده من اطلاق أهل الأخبار عليهم لقب (عامل) ولقب (ملك) أيضاً . فكانوا إذا تحدثوا عن صلاتهم بالفرس ، أو نقلـــوا من موارد فارسية قالوا لهم (عمـــالاً) ، وقالوا عنهم جملاً مثل : « كان يلي ذلك من قبل ملوك الفرس من آل نصر ... وقـــدر ولاية كل من ولي منهم[1] . وأمثال ذلك من جمل تشعر أنهم كانوا عمالاً وولاة . أما إذا تحدثوا عنهم من ناحيـــة حكمهم للحيرة وللعرب وعن صلاتهم بالشعراء وبمدد حكمهم لقبوهم بـ (ملك) وقالوا : (وقد ملك ....) ، وسبب ذلك أنهم أخذوا أخبارهم من منبعين : منبع أجنبي يوناني وفارسي ، وهو منبع وثائقه مدوّنة وموارده من الموارد الرسمية التي تنعتهم بـ (عمال) . ومنبع عربي يلقبهم بـ (ملوك) ، استند على العرف العربي أي على ما كان يخاطب به العرب أولئك الملوك ، فوقع من ثم هـــذا الالتباس .

السادات :

وسادة القوم أشرافهم ورؤساؤهم ، وذكر ان السيد الذي فاق غيره بالعقـــل والمال والدفع والنفع ، المعطى ماله في حقوقه المعين بنفسه . وذكر ان السيد الحليم الذي لا يغلبه غضبه[2] .

والسيادة منزلة ودرجة ، ولا تأتي أحداً إلا باعتراف قومه له بسيادته عليهم وبتنصيبهم له سيداً عليهم . إذا سوّدوا شخصاً ، عصبوه . والتعصيب التسويد . ولهذا كانوا يسمّون السيد المطاع معصباً . وذكر ان العصابة العمامة . وكانت عمائم

---

١ الطبري (٢/٨٩، ٢١٣ ومواضع أخرى) ، (في سياقة تواريخ اللخميين من ملوك عرب العراق) ، (في سياقة تواريخ غسان ملوك عرب الشأم) ، (كان ال جفنة عمال القياصرة على عرب الشأم ، كما كان ال نصر عمال الاكاسرة على عرب العراق) حمزة (٦٣ وما بعدها ، ٧٦) .

٢ تاج العروس (٢/٣٨٤) ، (سود) .

سادة العرب هي العمائم الحمر[1] .

وتعد الأسر الحاكمة التي ينشأ فيها عدد كبير من الملوك والحكام أسراً عريقة في الشرف . وينظر اليها نظرة تقدير واحترام ، لأنهم ورثوا المجد عن آبائهم أباً بعد أب.وينطبق ذلك على سادات القبائل الذين يرثون سيادتهم على قبائلهم أباً عن جد ، فإنهم يفتخرون بذلك على غيرهم ، لأنهم ليسوا من أولئك الذين انتزعوا السيادة فصاروا سادة ، على حين كان آباؤهم أو أجدادهم من الخاملين .

ويعبر عن السادة والأشراف بتعابير التعظيم والتفخيم ، ومنها لفظة (ابعل) (أبعل) ، أي سيد ورئيس . وهي لفظة استعملت للآلهة كذلك . استعملت بمعنى رب وإله . فورد (ود بعل ...) ، و (عثتر بعل ...) ، وهكذا . وقد استعملت في النصوص القديمة خاصة .

ويقال للسادة (اسود) (اسواد) في العربية الجنوبية ، وهم السادة الأشراف[2] . وتقابل اللفظة لفظة سادات في عربيتنا . وهم سادة القوم وأشرافهم وأصحاب المنزلة والمكانة في المجتمع .

ويعد أعضاء الأسر المالكة في طليعة السادات ، وهم في السيادة على حسب قربهم أو بعدهم من الملك ، ويقدمون على هذا الأساس عند حضورهم الى الملك وفي المواسم الرسمية . ولهم أرضون يستغلونها ، ورقيق يخدمهم .

وكانوا يقولون : (هذا سيدنا) ، و (انظروا الى سيدكم) ، و (جاء

---

١ ومنه قول المخبل الزبرقان :

رأيتك هريت العمامة بعدما أراك زمانا حاسرا لم تعصب

وهو مأخوذ من العصابة ، وهي العمامة . وكانت التيجان للملوك والعمائم الحمر للعرب . ورجل معصب ومعمم ، أي مسود . قال عمرو بن كلثوم :

وسيد معشر قد عصبوه بتاج الملك يحمي المحجرينا

فجعل الملك معصبا أيضا ، لان التاج أحاط برأسه كالعصابة التي عصبت برأس لابسها . ويقال : اعتصب التاج على رأسه ، اذا استكف به . ومنه قول ابن قيس الرقيات :

يعتصب التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وكانوا يسمون السيد المطاع معصبا ، لانه يعصب بالتاج ، أو يعصب به أمور الناس ، أي ترد اليه وتدار به . والعمائم تيجان العرب ، تاج العروس (١/٣٨٥) (عصب) ، اللسان (٣/٢٢٨ وما بعدها) ، (سود) ، تاج العروس (٢/٣٨٤) ، روح المعاني (٣/١٣٠ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣/٧٢ ، ٢٥٤ وما بعدها) .

٢ راجع النصوص .

سيدنا) ، تعبيراً عن السيادة والرئاسة . وقد كره الرسول أن يقال له : (أنت سيد قريش) ، و (أنت سيدنا) ، كما كانوا يدعون رؤساءهم[1] .

علائم الملك :

وللملك علامات ومميزات تميزه عن غيره من الناس . منها (التاج) والعرش والرمح أو الحربة وعربة الملك والحرس الخاص ووجود محل خاص يخصص له في المعبد ونقد يضرب عليه اسمه وشعاره وصورته . و (قصر) له يحكم منه ، أو قبة كبيرة يتخذها قراراً له ومجلساً حين يتبدى أو يخرج للصيد الى غير ذلك من علامات ، تكون سياءً للملك ، وعلامة فارقة تميزه عن رعيته وعن سواد مملكته.

وقد وصلت الينا بعض الآثار التي تشير الى شعار الملوك وعلائمهم ومنها النقود. فلدى العلماء وفي المتاحف العامة والخاصة اليوم ، نقود ضربت في العربية الجنوبية ، منها نقود معينية وقتبانية وحميرية . وقد ضرب عليها أسماء الملوك أصحابها . ومن ذلك نقد ظهر الملك (اب يثع) (ا ب ي ث ع) (ابيشع) فيه وهو جالس على كرسي ، لعله يرمز الى كرسي العرش . أما رأسه ، فهو مكشوف بغير غطاء . مما يدل على أنه لم يستعمل (التاج) . ولا نجد التاج على رؤوس بقية الملوك ممن ضربت صورهم على النقود . ولا على التماثيل التي عثر عليها لبعض ملوك أوسان .

ولما كنّا لا نملك في الوقت الحاضر ، صور ملوك جاهليين ، ولا تماثيل كافية او كتابات تشير الى شعار الملوك وعلاماتهم ونوع ملابسهم وأمثال ذلك مما يميز الملوك عن الرعية ، لذلك صار الحديث في هذا الموضوع من اختصاص الأجيال القادمة ، فلعلها تعثر على آثار هي الآن في باطن الأرض ، فيها حديث شيق عنه، فتقدمه لهم لنشره للناس .

ومن علامات الملك (العمارة) : رقعة مزينة تخاط في المظلة علامة للرياسة . و (العمار) : ما يضعه الرئيس على رأسه عمارة لرياسته وحفظاً لها، ريحاناً كان أو عمامة . وكانوا اذا استقبلوا ملكاً أو رئيساً ، استقبلوه بالريحان ، يرفعونه له،

---

١ ابن الاثير ، النهاية (١٨٩/٢ وما بعدها) .

وكانوا اذا جلسوا مجالس شربهم ، زينوها بالريحان ، فإذا دخل عليهم داخل ، رفعوا شيئاً منه بأيديهم وحيوه به . كما كانوا يضعون أكاليل الريحان على رؤوسهم كما تفعل العجم[1] . واذا سار الملك بين الناس ، استقبلوه برمي الريحان عليه ، وينثر الورود عليهم ، تحية للملوك .

وذكر ان من علائم الملك ، أن يقال للملك أو السيد المطاع : (أبيت اللعن). وقد زعموا أن (حذيفة بن بدر) كان يحيّى بتحية الملوك ويقال له : أبيت اللعن. وقد ترك ذلك في الاسلام[2] .

مظاهر التتويج :

وكان من عادة الملوك الاعلان عن تتويجهم للناس ، والاحتفال بيوم التتويج والإفصاح عنه ، وعندئذ يتلقب الملك بلقب يختاره لنفسه ، فيعرف به (هملقب) . وكان من عادة ملوك حضرموت مثلاً الاحتفال بحمل اللقب في (محفد أنود) (محفد انودم) . وقد انتهت الينا جملة كتابات تشير الى هذا المحفد . وقد اختتمت بكلمة (هملقب) أي (ليتلقب) ، واستعملت فيها بعض التعابير والكلمات التي لها صلة بهذه المناسبة ، مثل (متلل) ، ومعناها (بيّن) و (شهر) وأظهر ، و (علن) ، ومعناها أعلن ، ليكون ذلك معروفاً بين الناس[3] .

وقد يدعى الى هذه الاحتفالات رجال من حكومات أخرى ، لمشاركة الملك وحكومته في الأفراح والمسرّات ، فيأتي رجال من قتبان أو من حضرموت او من حكومات أخرى الى سبأ مثلاً ، لتهنئة ملكها وحكومتها ، يحملون اليه الهدايا والألطاف التي تقدم في أمثال هذه المناسبات . ولا يستبعد استدعاء مندوبين من خارج العربية الجنوبية لحضور هذه المناسبات ، غير أننا لم نظفر ، ويا للأسف، بنص يفيد ورود رسل أجانب أو زيارات ملوك الى اليمن وبقية العربية الجنوبية لهذه المناسبات ، ان لمناسبات أخرى مثل الدعوة الى زيارة العربية الجنوبية ومشاهدتها في الأعياد أو في سائر الأيام ، إلا ما رأيناه في عهد (أبرهة) الحبشي .

---

١ تاج العروس (٣/٤٢٢) ، (عمر) .
٢ الحيوان (١/٣٢٨) ، (هارون) .
٣ REP. EPIG., VII, p. 418, NUM. 4914, 4915, 4916.

وقد حافظ ملوك العربية الجنوبية ، على اختلاف حكوماتهم ، على عادة اتخاذ الألقاب الملكية حين تولي العرش . فالرجل الذي يُملك لا بد له من اتخاذ لقب له ، يعرف به . وقد بقوا يحافظون على هذه العادة الى ما بعد الميلاد . ثم أخذوا يتساهلون في حمل هذه الألقاب ولا سيما بعد تدخل الحبش في شؤون العربية الجنوبية ودخول اليهودية والنصرانية اليها . وقد كان فراعنة مصر يتخذون لهم لقباً ملكياً عند توليهم العرش . ونجد هذه العادة ، عادة اتخاذ ألقاب ملكية خاصة ، عند ملوك آشور وعند غيرهم من الملوك ، ليتميزوا بذلك عن أسماء الناس[1] . ولهذه الألقاب صلة بالآلهة التي كانوا يعبدون .

ومعارفنا في (مراسيم التتويج) مع ذلك ضئيلة جداً ، ولا سيما ما يخص العرب الشماليين ، فلا نعرف اليوم شيئاً يستحق الذكر عن كيفيـة التتويج وعن المراسيم والحفلات التي كانت تقام عندهم في هذه المناسبات . ولم نعثر حتى اليوم على نص جاهلي يصف أسلوب التتويج وكيفية اجراء المراسيم الخاصة بالتتويج عند الجاهليين عامة . فلا ندري أكانت تلك المراسيم تتم في المعابد وبرئاسة رجال الدين كما كانت الحال عند الآشوريين وعند غيرهم مثلاً ، حيث يقوم رجل الدين الأكبر بإجراء الطقوس الدينية وبتلاوة الصلوات والأدعية ، ثم يقوم بعد ذلك بوضع التاج على رأس الملك ، وأمام تمثال الإلـه : (آشور) . أم كـانت تلك المراسيم تتم في القصور الملكية ، ام كانت تجري بسذاجة وبغير تكلف ، بأن يأتي سادات القوم لتهنئة الملك ، ثم تقام المآدب .

ويظهر من أخبار أهل الأخبار ان عادة اتخاذ الألقاب الملكية لم تكن معروفة عند ملوك الحيرة والغساسنة وملوك كندة وأمثالهم ممن وعت أسماءهم ذاكرتهم ، بدليل ورود أسمائهم ساذجة لا تختلف عن تسميات الناس بشيء ليس فيها نعوت ولا صلة بالآلهة على نحو ما نجده في العربية الجنوبية عند المعينيين والسبئيين والقتبانيين ، وغيرهم من حكومات ظهرت هناك .

ولم تصل الينا أخبار في وصف كيفية احتفال ملوك الحيرة أو الغساسنة عنـد تتويجهم ، أو عند وفاة ملوكهم وكيفية دفنهم ، ثم كيفية تنصيب خلفائهم من بعدهم . ولا بد بالطبع من أن تكون تلك الحكومات قد احتفلت في هذه المناسبات ،

---

١ Roland de Vaux, Ancient Israel, p. 107.

وأن يكون ملوكها قد جلسوا لتقبل التهاني من المهنئين ، وأن يكونوا قد أولوا الولائم لكبار الوافدين عليهم . ونجد في أخبار (مكة) أن سادتها مثل (عبد المطلب) ، كانوا يقصدون ملوك اليمن عند انتقال العرش اليهم لتهنئتهم ولتقديم التبريكات لهم . ثم يمضون أياماً هناك حتى تنتهي ايام التهنئة ، فيغدق الملك عليهم بالألطاف والطرف ، لمناسبة عودتهم الى ديارهم . وتكون هذه الألطاف من دواعي الفخر عندهم .

ولا نعرف شيئاً عن رسوم (البيعة) عند الجاهليين . وأعني بالبيعة كيفية مبايعة الملوك عند انتقال الملك اليهم . ولكن المألوف بين العرب ان كبار الناس يبايعون الملوك ، بوضع أيديهم اليمنى على يد الملك اليمنى ، ثم يبايعونه على الاخلاص له والسمع والطاعة وما شاكل ذلك من جمل وعبارات . وقد يقسمون له يمين الطاعة والولاء . وقد ورد في بيعة الناس لرسول الله يوم فتح مكة، ما قد يشرح لنا أصول البيعة في الحجاز . فقد ذكر ان الناس اجتمعوا ، فجلس لهم رسول الله على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله ، أسفل من مجلسه يأخذ على الناس . فبايعوا رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعتهم لمن بايع رسول الله من الناس على الاسلام . فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع اليه نساء من نساء قريش ، وكانوا قد وضعوا إناءً فيه ماء بين يدي رسول الله ، فإذا أخذ عليهن العهد وأعطينه غمس يده في الإناء ، ثم أخرجها ، فغمس النساء أيديهن فيه. وكان بعد ذلك يأخذ عليهن، فإذا أعطينه ما شرط عليهن ، قال : اذهبن فقد بايعتكن ، لا يزيد على ذلك . وتكون هذه البيعة بغير ماء[1] .

وتكون المبايعة بمبايعة السادات والأشراف للملك أو لسيد القبيلة . والمبايعة هي المعاقدة والمعاهدة على الطاعة . وبايعه عليه مبايعة عاهده . كأن كل واحد منهما باع ما عنده لصاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره[2] . ويبدأ أقرب الناس من الملك بمبايعته ثم الأبعد فالأبعد حسب الوجاهة والمكانة . ولا بد وأن يكون للشعراء والخطباء المكان الأول في (البيعة) ، فالبيعة هي من المناسبات التي

---

١ الطبري (٣/٦١ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٢٨٥) ، (باع) .

يبحث عنها لسن الناس ، لإظهار أنفسهم وللحصول على نوال وعطايا المُبايَعين ، ولا تحدث هذه المناسبات إلا في الفترات ، لهذا كانوا يتلهفون لسماع أخبارها ، لعرض ما عندهم من فنون القول ، ولنيل ما عند الملوك من الكرم والبذل .

وكان ملوك الجاهلية يأخذون الوضائع والودائع من السادات والوجوه ، لتكون رهائن عندهم بالوفاء بعهود البيعة ، لخشيتهم من خيسهم بعهدهم وتنصلهم منه . وقد فعل (الأكاسرة) مثل ذلك بسادات القبائل ، فأخذوا (الوضائع) منهم، وجعلوها رهناً عندهم . وقد عرفت بـ (وضائع كسرى)[1] . ووضائع كسرى: هم الرهائن كان يرتهنهم وينزلهم بعض بلاده ، حتى يصيروا بها وضيعة . وهم الشحن والمسالح[2] . وقد بعث رسول الله ، الى وضائع كسرى بهجر ، فلم يسلموا، فوضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل منهم[3] . وكانت (وضائع كسرى) من أبناء أشراف العجم ، ومن خضع لحكمه من عجم وعرب .

التيجان :

ويضع الملوك شيئاً فوق رؤوسهم ، يتوجون به أنفسهم ليميزهم بذلك عن الرعية ، يسمى (التاج) في عربيتنا .

ولا نعرف في الزمن الحاضر اسم (التاج) في العربيات الجنوبية . لعدم وروده في نصوص المسند . اما أهل الحيرة والغساسنة وعرب نجد والعربية الشرقية ، فقد عرفوه واستعملوه ، فورد في نص النمارة من سنة (٣٢٨ م.) حيث ورد (ذو اسر التج) أي (الذي حاز التاج)[4] . وهذا النص هو أقدم نص تأريخي مدوّن وردت فيه هذه الكلمة . وقد وردت الكلمة في الشعر ، إذ جاء (تاج آل محرق)[5] وفي أخبار (النعمان) حيث عرف (بذي التاج)[6] . وذكر علماء اللغة أن التيجان للملوك[7].

---

١ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) ، فتوح ، البلاذري (٩٢) .
٢ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) .
٣ البلاذري ، فتوح (٩٢) ، (البحرين) .
٤ Lidzbarski, Ephemeris II, S. 34, Peiser, Die Arabische Inschrift von En — Nemara, in Orient Literatur Zeitung, VI, 15, 1905, 277-281.
٥ شعراء النصرانية (ص ٣٢٩) .
٦ Rothstein, S. 128.
٧ تاج العروس (٣/٣٨٦) (طبعة الكويت) .

وقد رصع ملوك الحيرة تيجانهم بالأحجار الكريمة على طريقة الفرس . وقد ورد في بيت شعر لمالك بن نويرة اليربوعي ان تاج النعمان بن المنذر كان من الزبرجد والياقوت والذهب[1] .

ونحن اذا جهلنا اليوم التاج أو أي شعار آخر يشير الى الملك والحكم كان يصنعه ملوك العربية الجنوبية على رؤوسهم ليكون سمة لهم تميزهم عن الرعية وعمن هم دونهم ، فإن ذلك لا يعني اننا ننكر وجوداً لشعار الملك عندهم ، بل إني أرى انه لا بد أن يكون لأولئك الملوك من تاج ومن شعارات أخرى ، كانوا يتخذونها لتميزهم عن غيرهم ولتشعرهم بأنهم أصحاب السلطان . واذا كان لملوك الرومان والروم والحبشة والفرس تيجان ، فلِمَ لا يكون لملوك العربية الجنوبية تيجان ، وقد كانوا يحاكون ملوك زمانهم في رسوم الملك وأسلوب الحكم ؟

وفي عربيتنا لفظة أخرى استعملت لتمييز شخص عن بقية الناس في المنزلة والدرجات ، هي لفظة (الإكليل) . فلمن يضع الإكليل على رأسه منزلة رفيعة ، إلا انها لا تبلغ درجة (ملك) ولا تؤدي معنى (تاج) . فالتاج لا يكون إلا للملوك . وأما (الإكليل) فلمن دونهم . وقد كان شيئاً يضعه الشخص فوق مفرق رأسه ، قد يعلق به خرز وأحجار وقد لا يعلق . وقد ورد في بعض الأخبار أن (هوذة بن علي الحَنَفي) ، صاحب اليمامة ، كان يضع إكليلاً على رأسه ، واليه أشار الأعشى في شعره :

له أكاليل بالياقوت ، فصّلها صواغها لا ترى عيباً ولا طبعا

وقد عرف (الإكليل) انه شبه عصابة مزينة بالجواهر، ويسمى التاج إكليلاً . وقيل : إن الإكليل يجعل كالحلقة ، ويوضع على أعلى الرأس[2] .

وقد ورد في روايات أخرى ان كسرى أعطى (هوذة) قلنسوة فيها جوهر، فكان يلبسها ، فسمّي ذا التاج[3] . غير ان أكثر الروايات تعارض في حصول

---

١ لن يذهب اللؤم تاج قد حبيت به من الزبرجد والياقوت والذهب
وقد قاله لما عرض عليه الردافة ، فأبى ، فطلبه ، فهرب منه . ومالك بن نويرة شاعر شريف ، وأحد فرسان بني يربوع ، قتله ضرار بن الازور الاسدي بأمر خالد ابن الوليد ، ابن قتيبة ، الشعر (ص ١٩٢ وما بعدها) ، الاغاني (٦٣/١٤ وما بعدها) ، الجواليقي (ص ٣٥٦) ، المرزباني (ص ٣٦٠) .

٢ اللسان (٥٩٥/١١ وما بعدها) .

٣ الاشتقاق (ص ٢٠٩ ح ، اللسان (١٨١/٦) ، (قلنسوة) .

(هوذة) على التاج ، وفي بلوغه منزلة ملك . وترى ان تلقيبه بـ (ذي التاج) هو على سبيل المجاز ، وان الذي كان يضعه على رأسه هو إكليل ، لا تاج من التيجان .

وذكر بعض الأخباريين أن التيجان كانت لليمن ، وذكر أن غيرهم كانوا يتوجون أنفسهم بخرزات تنظم لهم . ويقال إن الملك كان إذا ملك سنةً زيد في تاجه وقلادته خرزة ، ليعلم عدد السنين التي ملك فيها . وذلك كالذي ورد في بيت شعر من قصيدة قالها لَبيد في رثاء النعمان بن المنذر ، وهو قوله :

رعى خرزاتِ الملكِ عشرين حجةً وعشرين، حتى فادَ والشيبُ شاملُ[1]

وقد ورد في شعر أعشى بكر في هوذة بن علي الحنفي الذي كان يجيز لطيمة كسرى في كل عام :

من يَرَ هوذة يسجُدْ غير مُتَّئِبٍ إذا تعصَّب فوق التاج أو وضعا
له أكاليل بالياقوت فَصَّلَهـا صوّاغها لا ترى عيباً ولا طَبَعا

ويتبين من ذلك أن هوذة كان من أصحاب التيجان . غير أن بعض العلماء ينكرون وجود التيجان عند غير أهل اليمن ، ويقولون كما ورد عن أبي عبيدة عن أبي عمرو : « لم يتتوج معدّي قط ، وإنما كانت التيجان لليمن . ولما سئل عن هوذة بن علي الحَنَفي ، قال : إنما كانت خرزات تنظم له »[2] .

وذكر ان عادة نظم الخرز في عِقْد يوضع على الرأس ، ليكون شعاراً للملك والحكم ، عادة كانت معروفة في الحجاز . وقد ورد ان (عبدالله بن أبي بن سلول) كان رجلاً شريفاً في يثرب لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان ، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملكوه عليهم . فما راعه إلا مجيء الإسلام الى يثرب وقدوم الرسول اليها ، فانصرف قومه عنه ، فضغن على الإسلام ،

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٢٦٦) ، اللسان (٥/٣٤٥) ، (حرز) ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٣) .

٢ العقد الفريد (٢/٢٤٤) .

ورأى أن الرسول قد استلبه ملكه[1] .

وورد في الحديث أن الرسول : (شكا الى سعد بن عبادة ، عبدالله بن أُبيّ ، فقال اعف عنه ، يا رسول الله ، فقد كان اصطلح أهل البُحيرة ، على أن يعصبوه العصابة . فلما جاء الله بالاسلام ، شَرِق لذلك) . ويعصبونه : معناه يسوّدونه ويملكونه ، وكانوا يسمّون السيد المطاع معصباً ، لأنه يعصب بالتاج . وفي ذلك قال عمرو بن كلثوم :

وسيّد معشرٍ قد عصّبوه بتاج الملكِ يحمي المُحْجَرِينا

فجعل الملك معصباً أيضاً ، لأن التاج أحاط برأسه كالعصابة التي عصبت برأس لابسها . ويقال : اعتصب التاج على رأسه ، اذا استكفّ به ، ومنه قول قيس الرُّقيّات :

يعتصب التاجُ فوق مفرقه على جبينٍ كأنه الذهب[2]

ولا تؤدي لفظة (سموط) معنى (تاج) ، بل ولا تبلغ في المنزلة منزلة (إكليل) . و (السمط) : الخيط ما دام الخرز أو اللؤلؤ منتظماً فيه . وقد استعملت كلمة سموط في مقام التاج ، للتعبير عن تاج ملوك الحيرة [3] ، غير انني أرى ان ذلك على سبيل التجوز ، لا التخصيص . وقد ذكر علماء اللغة ان السمط يشدّ في العنق والجمع سموط[4] .

ومن مظاهر الملك (السرير) ، ويقال له (العرش) كذلك . ويعبر بالسرير عن الملك والنعمة [5] . ويذكر أهل الأخبار ان أول من جلس على السرير من ملوك العرب (جذيمة الأبرش) ، وهو أول من وقعت له السمعة من ملوك العرب ، وأول من لبس الطوق[6] . وقد أشير في القرآن الى عرش ملكة سبأ ،

---

١ نهاية الأرب (١٦/٣٥٦ وما بعدها) .
٢ اللسان (١/٦٠٦) ، (عصب) .
٣ Rothstein, S. 129.
٤ الاشتقاق (٢/٣٠٤) ، اللسان (٧/٣٢٢) ، (سمط) .
٥ الاشتقاق (٢/٣٠٤) ، اللسان (٧/٣٢٢) ، (سمط) .
٦ صبح الأعشى (١/٤١٦) .

ويكنى به عن العزّ والسلطان والمملكة . ولذلك يقال : (عرش فلان) و (عرش المملكة) و (ثل عرشه) ، و (أصحاب العروش) أي الملوك[1] .

وذكر أهل الأخبار أن (السرير) : الوِثاب . وقيل : السرير الذي لا يبرح الملك عليه ، واسم الملك (مُوثبان) . والموثبان بلغة حمير : الملك الذي يقعد ، ويلزم السرير . والوِثاب المقاعد . قال أُمية بن أبي الصلت:

بإذن اللهِ ، فاشتدت قـواهم على مَلِكين ، وهي لهم وثاب[2]

وقد كان الملوك يلبسون قلائد عرفت بـ (قلائد الملك) . تكون من الذهب والأحجار الكريمة . وربما كان (السمط) قلادة تنظم من اللؤلؤ والأحجار الكريمة، يتقلدها الملك للزينة ولتكون شعاراً للملك .

وذكر علماء اللغة أن كل ما يضعه الملوك والرؤساء على رؤوسهم من تاج أو عمامة أو قلنسوة أو غيره ، فهو (عمارة) . و (العمارة) ، رقعة مزينة تخاط في المظلة علامة الرياسة ، وهي (التحية) أيضاً[3] .

ومن عادة الملوك استخدامهم الحراس يمشون معهـم اذا ركبوا ، دلالة على الملك ، ولحراستهم . يمشون معهم ، وقد تقلدوا سلاحهـم ولبسوا ألبسة خاصة تشعر انهم من حرس السلطان . ويذكر أهل الأخبار ان أول من مشت الرجال معه ، وهو راكب ، (الأشعث بن قيس الكندي) . كانت (بنو عمرو بن معاوية) ملّكوه عليهم وتوّجوه[4] . وكان من عادة الأشراف والسادات حتى في الاسلام ، أن تسير مع ركابهم حاشية يتناسب عدد أفرادها مـع منزلة الشريف ومكانته وغناه . فكان (كريب بن أبرهة) سيد حمير في زمانه ، اذا سار بالشأم خرج وتحت ركابه خمسمائة نفر من حمير يسعون[5] .

---

١ المفردات (٣٣٢) .
٢ اللسان (٧٩٢/١) ، (وثب) .
٣ تاج العروس (٤٢٢/٣) ، (عمر) .
٤ صبح الأعشى (٤١٦/١) .
٥ الإصابة (٢٩٦/٣) ، رقم (٧٤٩٠) ، (كريب بن أبرهة بن الصباح) .

القصور :

وقـد عرفت البيوت التي كان يقطن فيها المكربون وملوك العربيـة الجنوبية بالقصور ، مثل (قصر غندن) أي (قصر غمدان) و (قصر سلحن) ، أي (قصر سلحين) . ولفظة (قصر) من الألفاظ الواردة في العربيات الجنوبية . وقد أشار علماء اللغة والأخبار الى (قصور اليمن) ، وذلك يدل على اختصاص اليمن بها . وذكر علماء اللغة أن القصر : المنزل ، وقيل : كل بيت من حجر[1]. وترد في لغة بني إرم على هذه الصورة : (قصرو)[2] .

ويقطن القصور حرم الملوك ، أي أزواجه . وقد يكون للملك زوج واحدة، وقد تكون له جملـة أزواج ، إذ كانت العادة أن يتزوج الملوك بجملة نساء ، ليتمتع بهن ، وقد يتزوج لعوامل سياسية ، فيأخذ الملك ابنة سيد قبيلـة كبير ، أو ابنة رجل من أصحاب الجاه والسلطان ليقوي مركزه وليحصل عـلى مؤازرة أصحاب البنت له .

وربما لا يكتفي الملك أو سيد القبيلة بالزوجة أو الزوجات ، فيضيف اليها أو اليهن عدداً من (الجواري) والسراري ، ممـن وقعن في الأسر وعرفن بالجمال وبحسن الذوق ، ممن يشتريه من سوق النخاسة ، وإذا ولد لهن مولود عدّ المولود من أبناء الملك أو سيد القبيلة إن قرر الملك أو سيد القبيلة ذلك ، ويعامل معاملة أبناء الأسرة المالكة ، غير أن الناس لم يكونوا ينكرون عليه نظرتهم الى ابن ملك ولد من أم من بنات الأسر المالكة أو من أسرة شريفة معروفة .

وللملوك الحيرة قصور ذكر أهل الأخبار أسماء بعض منها . مثـل : الخورنق والسدير ، كما كان للملوك الغساسنة قصور في مواضع مختلفة من مملكتهم وقصور في دمشق ، يمضون فيها اياماً عند زيارتهم لها ، وعند وجود مراجعات لهم مع حكامها من الروم . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء بعض القصور التي بناها الغساسنة في مواضع متفرقة من الأرضين التي خضعت لحكمهم ، تحدثت عنهـا في أثنـاء كلامي على الغساسنة في الجزء الثالث من هذا الكتاب : كـما تحدثت عن قصور ملوك الحيرة في الجزء نفسه .

---

١ اللسان (٥/١٠٠) ، (قصر) .
٢ غرائب اللغة (٢٠١) .

وكان للملك (النعمان) قصر بالحيرة عرف بـ (القصر الأبيض) ، لبياضه، يظهر ان جدرانه كانت مجصصة ، فظهرت بيضاء . ويذكر أهـــل الأخبار ان النعمان ، كان عنده دواوين شعر فيها ما مدح به ، أو ما مدح به آله . ثم أمر فدفنها في قصره هذا ، فلما كان (المختار) قيل له : إن تحت القصر كنزاً فأمـر به فحفر ، فاستخرج الكنز ثم صار الى آل مروان أو ما صار منه . وكان هذا القصر دار ملكه ومقره في الحيرة ، اذ لم يذكروا له قصراً آخر له فيها .

وكان للأكاسرة القصر الأبيض بالمدائن ، ذكر انه كان من العجائب،ولم يزل قائماً الى ان نقضه (المكتفي بالله) العباسي في حدود سنة ٢٩٠ هـ .وبنى بشرفاته أساس التاج الذي بدار الخلافة وبأساسه شرفاته . وقد ذكره البحتري[١] .

وذكر (الزبيدي) ، اسم قصر دعاه (لحيان)[٢] ، زعم أنه (قصر النعمان بن المنذر بن ساوى) بالحيرة[٣] . فهل قصد بذلك شخصاً آخر من أهـــل الحيرة ؟ أم إنه وهم من أوهام عديدة نجدهم في (تاج العروس) في أمور تأريخية ، قد يكون المسؤول عنها نسّاخ الكتاب في بعض الأحيان .

ونسب بعض أهل الأخبار الى (النعمان بن المنذر) ، داراً ، قالوا لهـــا : (الزوراء) ، ذكروا أن (أبا جعفر المنصور) هدمها[٤] .

الحكم وأخذ الرأي :

ولم يكن الملوك في العربية الجنوبية أو في العربية الغربية ملوكاً مطلقين لهم سلطان مطلق وحـــق إلهي في ادارة الدولة على نحو ما يريدون ، ولكن كانوا ملوكـــاً يستشيرون الأقيال والأذواء وسادات القبائل والناس وكبار رجال الدين فيما يريدون عمله ، واتخاذ قرار بشأنه . وهو نظام تقدمي فيه شيء من الرأي والمشورة وحكم الشعب (الديمقراطية) بالقياس الى حكم الملوك المطلقين الذين حكموا آشور وبابل ومصر وايران[٥] .

---

١ تاج العروس (٥/١٠) ، (بيض) .
٢ بالفتح .
٣ تاج العروس (١٠/٣٢٤) ، (لحى) .
٤ تاج العروس (٣/٢٤٦) ، (زور) .
٥ A. Grohmann, S. 128.

أما الطبقات الضعيفة وبقية السواد من السوقة والفلاحين وما شاكلهم ، فليس لهم رأي في تسيير الأمور ، ولا يستشارون في البت في أي شيء حتى في المسائل الصميمة المتعلقة بمصيرهم ، ولم يكن عالم ذلك اليوم يحفل بسواد الناس، أي بالغالبية، لأن الرأي لأصحاب الوجاهـــة والسيادة والسلطان إذ ذاك ، وفي كل مكان من أمكنة العالم .

وترينا الكتابات المعينية ان ملوك معين كانوا مقيدين في حالات معينة بأخذ رأي (المزود) عند اتخاذ قرار خطير ، ولذلك يذكر (المزود) عند صدور التشريعات والقرارات الخطيرة في نص القوانين والقرارات ، للتعبير عن موافقته عليها وعلى انها صدرت بعد وقوفه عليها وأخذ الملك رأيه فيها[1] . ويؤخذ رأي المعبد أيضاً، فقد ذكر في قرار بشأن الضرائب ، وذلك يدل على ان المعبـــد كان يستشار في المسائل الخطيرة أيضاً[2] .

وقد تبين من بعض الكتابات ان ملوك العربية الجنوبية ، قـــد أخذوا برأي الجمعيات وأصحاب الحرف والعمل ، حتى لا يبرموا أمراً يظهـر بعد تنفيذه انه غير واقعي ولا عملي ، وانـه سيلقى معارضة من بعض الفئـــات والطبقات . كما أخذوا برأي المستشارين وأصحاب الرأي من جماعة الـ (فقضت) والـ (بتل) و (طبنن) (الطبن) ، وهم الملأ كون ، عند وضع القوانين[3] .

وقد تبين من النص : Rep. Epigr. 2771 ان ملك معين استشار (المزود) في فرض ضريبة . وتبين من النص : Rep. Epigr. 2774 انه استشاره في فرض ضرائب خصصت بالمعبـــد . ولكننا نجد في نصوص أخرى ، مثـــل النص : Rep. Epigr. 3699 أن الملك لم يستشر (المزود) حين أصدر أمره في موضوع زواج المعينيين بأهل (ددن) (ددان) (ديدان) . ولعله فعـــل ذلك لأن موضوع الزواج موضوع اداري ولا علاقة له بالسياسة العامة أو بفرض الضرائب أو بالمسائل الداخلية الخطيرة، وهي الأمور التي يأخذ فيها الملك رأي المجلس . كما نجد الملك يصدر قانوناً باسم (معن) (معين) أي شعب (معين) دون أن يذكر اسم (المزود)[4] .

---

١ A. Grohmann, S. 128, REP. EPIG. 2771.
٢ REP. EPIG. 2774, 2458, A. Grohmann, S. 128.
٣ Glaser 1606, Grohmann, S. 126. ff.
٤ REP. EPIGR. 2952, Grohmann, S. 128.

وقد تبـين من بعض الكتابات أن ملوك معين أصدروا تشريعات في أمـور لم يأخذوا فيها رأي المزود ، لعدم ورود إشارة فيها اليه . فلدينا قرار في تنظيم أمور الزواج بين المعينيين وأهل (ددن) (ديدان) ، لم يرد فيه ذكر للمزود[1] . ولدينا قرار آخر لم يذكر فيه اسم المزود أيضاً ، غير أنه يشير الى أنه صدر باسم شعب معين[2] ، مما قد يبعث على الظن بأن الملوك لم يكونوا ملزمين دائماً بالرجوع الى رأي المزود ووجوب أخذ موافقته في كل قضية، بل في القضايا العامة الخطيرة التي تمس مصير الشعب .

ويتبين من الكتابات السبئية أن ملوك سبأ ولا سيما قدماؤهم كانوا يتبعون سُنَّة (معين) في الرجوع الى رأي المزود في القضايا الخطيرة للدولة واصدار القوانين. فكان الملك إذا أراد اصدار تشريع ، أحاله على المزود ليبدي رأيه فيـه ، وفي طليعة هذه المسائل القوانين الخاصة بالأرضين وبالزرع وبحصص الحكومة من الضرائب لما لها من صلة بمصالح رجال المزود . ومتى وافق المزود على القانون أحيل على الملك لتصديقه ولإعلانه .

وهنـالك شبه كبير في موضوع التشريع بين القوانين القتبانية والقوانين السبئية العامة ، الصادرة في سبأ ، ولا سيما في ايام حكم قدماء الملوك ، حتى ذهب بعض الباحثين الى وجود ما يشبه حد الاتفاق بين قوانين المملكتـين ، إلا في القوانين الخاصة التي تتعلق بالتشريعات المحلية للمخاليف والمدن ، فإنها شرعت على وفق الأحوال الملائمة لتلك الأمكنة[3] .

وقد يشار في التشريعات الى قصور الملوك ، مثـل (قصر سلحن) (قصر سلحين) ، كما أشير اليها في كتابات مختلفة ، تتعلق بأخبار الحروب والجباية ، وذلك كناية عن مقر الحكم ، على نحو ما يستعمل في الزمن الحاضر من قولهم : (صدر من قصرنا العامر) أو (صدر من قصر ....) . وذلك رمز الى مقر الحكم وكناية عن الملك الذي يقيم في ذلك القصر . ومن تلك القصور : (قصر غمدن) أي (قصر غمدان) و (قصر وعلن) (قصر وعـلان) و (قصر ريدن)

---

١ REP. EPIG. 3699, A. Grohmann, S. 128.

٢ REP. EPIGG. 2952, A. Grohmann, S. 128.

٣ Handbuch I, S. 128, Bodenwirtschaft, S. 180, A. Grohmann, S. 129.

أي (قصر ريدان) . ومن هذه القصور تصدر الأوامر بالموافقة على القوانين والمراسيم ، وفيها يوقع على ما يراد نشره ليكتسب صبغة رسمية مقررة .

في أخلاق الحكام :

ليس لدينا وثائق جاهلية في أخلاق الحكام والصفات التي يجب أن يتصف بها الحاكم ، ليتمكن بها من حكم الناس ومن الحكم بينهم . وكل ما لدينا ، نتف ومقتبسات في أصول الحكم تنسب الى الجاهليين ، مدونة في المؤلفات الاسلامية ، يظهر ان بعضها أخذ من حكم الفرس ومن آداب اليونان في السياسة ، فنسب الى الجاهليين ، وبعضه اسلامي خالص وضع ليكون وعظاً وإرشاداً وإشارة هادية الى الخلفاء والحكام في كيفية حكم الرعية وفي تنبيههم الى واجباتهم وابعادهم عن الظلم والاتعاظ بمصير الحكام الطغاة الماضين حتى لا يكون مصيرهم مصير أولئك الملوك .

وفي كتاب (تأريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم) ،لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، وصايا وعظات في أصول الملك والحكم ، نسبها الى ملوك العرب الماضين قبل الاسلام ، دونها للخليفة (المأمون) لتكون له هادياً ومرشداً في كيفية الحكم . وقد استهله بوصية نسبها الى (قحطان بن هود) أوصى بها بنيه أن يتعظوا بما نزل بقوم عاد حين عتوا على ربهم ، وعصوا أمر نبيهم ، فحثهم على التآلف والتعاضد والتناصر وعلى الطاعة للحكام، ثم حث ابنه (يعرب) كبير أولاده على العمل بسيرته ومنهجه ، وان يصل ذوي القربى ، وان يحفظ لسانه ويصونه ، وان يكون كاظماً للغيظ ، يقظاً من الأعداء ، حليماً ، لأن الذين سادوا لم يسودوا إلا بالعلم ، وان يكون كريماً ، لأن البخل يبعد الأتباع من الحاكم[1] .

وذكر (الأصمعي) ان يعرب أوصى أبناءه بخصال وبما وصاه به أبوه . أوصى بأن يتعلم العلم ويعمل به ، وان يترك الحسد ، وان يتجنب الشر وأهله ، وان ينصف الناس ، وان يبتعد عن الكبرياء ، لأن الكبرياء تبعد قلوب الرجال عن

---

١ تاريخ ملوك العرب ، (ط٠ الشيخ محمد حسن آل ياسين) ، سنة ١٩٥٩ م ببغداد (ص ٣ وما بعدها) ٠

المتكبر ، وأوصى بالتواضع ، فإنه يقرب المتواضع من الناس ويحببه اليهم ، وان يصفح عن المسيء ، وان يحسن الى الجار ، ولأن يسوء حال أحدهم ، خير له من أن يسوء حال جاره ، وان يوصي بالمولى ، لأن المولى منكم واليكم ، وان يخلص بالاستشارة والنصيحة ، وان يتمسك الانسان باصطناع الرجال[1] .

ونجد في الوصايا التي ذكرها (الأصمعي) وصايا بوجوب التعاضد والتآزر ، والابتعاد عن الفرقة ، والطاعة من غير خوف[2] ، والعدل في الرعية ، والتجاوز عن المسيء ، والكف عن أذى العشيرة[3] ، والأخذ بالرأي لأنه لا بد للملك ممن يعينه في الرأي والأمر والنهي ، ولا بد له من مشير يحمل عنه بعض ما يثقله من ذلك[4] . والملك صانع ، فإن قام الصانع حق قيامه على صنعته ، استجاد الناس له ، فكسب المال والجاه ؛ وان استهان بها ، ذهبت الصنعة من يده ، وكسب الندم والحرمان[5] .

واستمر (الأصمعي) يذكر الوصايا التي ذكر أن ملوك العرب الماضين وضعوها في كيفية الحكم حذر الزلل ، ولتجنب الوقوع في الخطأ ، وهي نثر وشعر ، قد تكون من وضعه وصنعته ، صنعها للخليفة ليتعظ بها في الحكم على نسق ما كان يفعله أدباء الفرس والهند في وضع الوصايا والمواعظ والقصص على ألسنة الملوك الماضين والحكماء ليتعظ بها الحكام في أثناء حكمهم للناس . ونجد أمثلة كثيرة من هذا النوع دبجت في كتب السياسة والأدب ، على ألسنة أرسطو أو الاسكندر أو أكاسرة الفرس[6] .

ونجد في شعر ينسب الى (لقيط الإيادي) ، أن الحاكم الذي يقلد الأمر يجب أن يكون رحب الذراع ، مضطلعاً بأمر الحرب،لا مترفاً ولا إذا عض به مكروه خشع وخضع ، يحلب درّ الدّهْر ، يكون مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعاً ، مستحصد الرأي لا قحماً ولا ضرعاً[7] .

---

١ (ص ٩ وما بعدها) .
٢ (ص ١٧ وما بعدها) .
٣ (ص ٢٠ وما بعدها) .
٤ (ص ٢٥) .
٥ (ص ٣٣ وما بعدها) .
٦ نهاية الأرب (١٦/٦) (في وصايا الملوك) .
٧ نهاية الأرب (١٧/٦) .

وكان الملوك على استبدادهم أحياناً بآرائهم يستشيرون من يرون فيه الأصالة في الرأي ، ولا سيما المتقدمون في السن ، فقد « كانت العرب تحمد آراء الشيوخ لتقدمها في السن ، ولأنها لا تُتبع حسناتها بالأذى والمنّ ، ولما مرّ عليها من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور ، حتى كأنها تنظرها عياناً ، وطرأ عليها من الحوادث التي أوضحت لها طريق الصواب وبينته تبياناً ، ولما منحته من أصالة رأيها ، واستفادته بجميل سعيها »[1] .

ويظهر أن الملوك الغساسنة والمناذرة كانوا قد تطبعوا بطباع الروم والفرس ، وأخذوا عنهم أبهة الحكم ، فحجبوا أنفسهم عن رعيتهم ، مخالفين بذلك العرف العربي ، وحصروا أنفسهم في قصورهم وفي قبابهم ، حتى أن من كان يريد الوصول اليهم من ذوي الحاجات كان عليه أن يقف أياماً أمام باب الملك ، حتى يأتيه الأذن بالدخول عليه ، وهذا ما أزعج الوافدين عليهم كثيراً ، وسبب الى تجاسر الشعراء وذوي الألسنة الحادة عليهم . وكان على أكثر الوافدين التقرب الى (الحاجب) والتذلل اليه ورشوته ليعجّل لهم بالدخول على الملوك ، ومنهم من كان يتعهد له بأن يجعل له نصيباً فيما قد يناله من جوائز الملك وهداياه ، فيسرع الحاجب عندئذ الى الملك ، لطلب أخذ الأذن منه بدخول ذلك الوافد عليه .

وتوصف أخلاق الملوك بالتلون والتغير ، لأن الملوك لهم بَدَوات . حتى ضرب بتلون أخلاقهم المثل . فقيل :

ويومٍ كأخلاق الملـوك ملوّنٍ فشمسٌ ودجنٌ ثم طلٌّ ووابلُ[2]

ولهذا حذر أصحاب المكانة والجاه من الوصول اليهم في أيام غضبهم وبؤسهم. خشية صدور شيء منهم قد يزعجهم فيغضبوا عليهم ، أو يتفوهوا بعبارات قد تخدش من كرامتهم ، وتسبب لهم الألم والأذى . وقد ورد في الحكم : اتقوا غضب الملوك ومدّ البحر[3] . وقد ضرب المثل بيومي البؤس والنعيم .

وقد وردت في الكتابات الجاهلية مصطلحات تعبّر عن تقدير الناس لملوكهم ،

---

١ نهاية الأرب (٦/٧٤) .

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٤) ، (أخلاق الملوك . رقم ٢٦٣) .

٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٦) .

مثل مصطلح (أمرهم) ، أي (آمرهم) و (أميرهم) أو سيدهم ، ونجد الكتابات العربية الجنوبية تطلق لفظة (مراهمو) و (مراسهمو) بمعنى (آمرهم) او (أميرهم) و (سيّدهم) على من هو فوقهم ، كالملوك أو الأقيال أو السادات ، احتراماً لهم واعترافاً بسيادتهم عليهم .

أما في كتابات (تدمر) ، فقد وردت لفظة (مرن) ، أي (سيدنا). وقد أطلقت على الملوك ، كما استعملت للأشخاص الكبار من أصحاب السلطان . وتقابل هذه اللفظة كلمة Exarkos في اليونانية [1] .

وفي الشعر ذمّ للحكام وشعر في هجاء السادة ، لظلمهم وتنمرهم في حق رعيتهم ، حتى ذهب الظن بهم أن كل مطاعٍ يظلم ، وان المسوّد ظالم غشوم [2] .

الراعي والرعية :

الراعي هو الوالي ، أي الذي يلي أمور قوم ويرعى شؤونهم ، فهو بمنزلة الراعي للماشية المرعية . أما القوم فهم الرعية ، أي العامة [3] . والملك هو راعي مملكته ، وراعي رعيته ، وهم من هم دونه ، يتبعونه ويخضعون لرأيه وحكمه .

ويعبر عن الرعية بالسُّوقة كذلك . سمّوا سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم ، والسوقة من الناس مَنْ لم يكن ذا سلطان . والسوقة خلاف الملك . قال نهشل بن حَرّيّ :

ولم تَرَ عيني سوقةً مثل مالك ولا ملكاً تجبى اليه مرازبه

وفي البيت المنسوب الى (بنت النعمان بن المنذر) ، وهو :

فبينا نسوس الناسَ والأمر أمرُنا إذا نحن فيهم سُوقة نتنصّفُ [4]

تعبير عن فكرة التعالي والترفع التي كانت عند أهل الحكم والملك بالنسبة الى

---

١ Die Araber II, S. 255.
٢ الحيوان (٣/٨٠) ، هارون) .
٣ اللسان (١٤/٣٢٧) ، (رعى) .
٤ اللسان (س / و / ق) ، (١٠/١٧٠) .

المحكومين . وفي حديث المرأة الجَوْنية التي أراد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يدخل بها ، فقال لها : هبي لي نفسك ، فقالت : هل تَهَبُ الملكة نفسها للسوقة[1] ؟ ما يمنع عن هذه الروح .

ويعبر عن السواد الأعظم بـ (سواد الناس) وبـ (سواد القوم) أي عوامهم وكل عدد كثير . وهو مصطلح يقرب معنـــاه من معنى (السوقة) . والسواد الأعظم من الناس ، هم الجمهور الأعظم والعدد الكثير[2] وهم (الغوغاء) الذين لا يفقهون شيئاً من أمور دنياهم وانما هم تبع وغنم يتبعون أي راع . وقد برزت أهميتهم في صدر الاسلام ، إذ عرفت الفائدة منهم فيما لو وجهوا توجيهاً حسناً . قال الخليفة (عمـــر) : « استوصوا بالغوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ، ويسدّون البثوق »[3] .

وقد عرف الجاهليون قيمة وأهمية السواد ، لأنه الكثرة والرماح التي يعتمـــد عليها ذوو السؤدد في سؤددهم ، والجماعة التي تدافع عن سيدها وتحمي حماه . وقد استطاع (أبو سلمى) ان يعبر عن أهمية العوام وأصحاب الحناجر القوية من غوغاء الناس في جلب السؤدد الى الأشخاص في هذا الرجز :

لا بد للسؤدد من رماحِ ومن عديد يتقي بالراح
ومن كلاب جمة النباح[4]

وعلى الرعية حق الطاعة ، طاعة من بيده الحكم والسلطان . وليس عليها الخروج على أوامره وأحكامه ،لأن من حق الراعي تأديب رعيته اذا خرجت عن طاعته . فإذا خرجت الرعية على حكم الملك ، حق عليه تأديب رعيته بالصورة التي يراها . ولا يتمكن من الخروج على طاعة السلطان إلا الأشراف وسادات القبائل ، ففي استطاعة هؤلاء بما لهم من أتباع ورعية ، تهديد الملوك ، أو من ينوب عنهم في الحكم . ولهذا كانت لهذه الطبقة مكانة وكلمة عند الملوك .

---

١ اللسان (س / و / ق) ، (١٠/١٧٠) .
٢ اللسان (٣/٢٢٤) ، (سود) .
٣ رسائل الجاحظ (١/٣٦٦) ، (كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) .
٤ رسائل الجاحظ (١/٣٦٦) ، كتاب فصل ما بين العداوة والحسد) ، (ارماح) ، الحيوان (١/٣٥١) ، (٣/٧٩) ، (هارون) .

ولم يكن من السهل على أبناء القبائل تقديم واجب الطاعة للملوك إذا كانوا من غير قبيلتهم ، فالملوك الغرباء وإن كانوا عرباً مثلهم ، لكنهم في نظرهم غرباء عنهم ، ومن قبيلة بعيدة عنهم . والعربي بحكم طبيعة ظروفه ومحيطه القبليّ ، لا يرى الخضوع إلا لمن تربطه به رابطة العصبية . ومعنى هذا أنه لا يخضع إلاّ لسيد قبيلته ، أو لمن يخضع سيد قبيلته لحكمه أو للملك إذا كان من قبيلته . وسيد القبيلة لا يخضع هو نفسه لأحد إلا إذا أُكره على ذلك ، إكراهاً ، أو وجد في خضوعه لحكم حاكم آخر منفعة ما تأتيه من هذا الحكم . فإن زالت القوة التي أكرهته على الخضوع لغيره ، أو ذهبت المنفعة التي كان يحصل عليها ، أعلن انفصاله واستقلاله بشؤون قبيلته أو انضمامه الى حاكم قوي آخر ليصير حليفاً له . لذا صار تأريخ القبائل صراعاً ونزاعاً بين قبائل طامعة في حكم قبائل أصغر منها، وقبائل أخرى تريد أن تعيش لوحدها مستقلة بإدارة أمورها ، او منافسة غيرها في حكم قبائل أخرى ، لتكوين حكومة كبيرة منها ومن القبائل التي استسلمت لها . فالممالك التي تكونت والتي تحدثت عنها ، لم تكن إذن ممالك مكونة من مواطنين آمنوا بمبدأ المواطنة واعتقدوا بعقيدة طاعة سلطان الدولة . بل كانت مملكة قبائل اتحدت طوعاً أو كرهاً ، وكونت حلفاً كبيراً ترأسه ملك . يظل قائماً ما دامت هنالك قوة قائمة ومضلحة وفائدة ، فإن انتفت المصلحة ، عادت طبيعة الأنانية القبلية الى لعب دورها في الانفصال . وهي عقلية تعرقل وتقاوم تكوّن الدول الكبرى . ولهذا قاومها الإسلام ، لأنه جاء بمبدأ (الجماعة) ، وعقيدة (الأمة) و (الملة) ، فورد في الحديث : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات، مات ميتة جاهلية »[1] .

وللشعراء وأهل البيان كلام في أصول سياسة الحكم وادارة أمور الرعية . قال (الجاحظ) : « ومتى أحب السيد الجامعُ ، والرئيس الكامل قومه أشد الحب وحاطهم على حسب حبه لهم ، كان بغض أعدائهم له على حسب حب قومه له. هذا اذا لم يتوثب اليه ولم يعترض عليه من بني عمه واخوته من قد أطمعته الحال باللحاق به . وحسد الأقارب أشد ، وعداوتهم على حسب حسدهم .

وقد قال الأولون : رضا الناس شيء لا ينال .

---

١ نهاية الأرب (٦/١٢ وما بعدها) .

وقد قيل لبعض العرب : من السيد فيكم ؟ قال الذي اذا أقبل هبناه ، واذا أدبر اغتبناه .

وقد قال الأُول : بغضاء السُّوق موصولة بالملوك والسادة وتجري في الحاشية مجرى الملوك .

وليس في الأرض عمل أكدّ لأهله من سياسة العوام[1] .

وقد دفعت الروح الفردية والنزعة القبلية سادات القبائل وقادة الجيش على الثورة عملوكهم وبحكامهم ، فامتلأ تأريخ الجاهلية بها وبالمكايد والانتفاضات . وقد أثرت أثراً خطيراً في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وصارت في جملة عوامل تدهور الحضارة في اليمن . ونقرأ في كتابات المسند بعض الألفاظ المعبرة عن الفوضى وعدم الاستقرار بسبب حركات العصيان . منها لفظة (كيد) ، وتؤدي معنى ثورة وعصيان[2] . و (ثبر) و (مثبر) بمعنى (ثبور) ، ويراد بها ثورة ايضاً[3] . و (نزع) وتؤدي معنى ثورة كذلك[4] . و (نقم) وتؤدي معنى (نقمة) وعدم رضى عن الأوضاع . و (قسدت) و (قسد) بمعنى ثورة وثارَ . فالثورة هي (قسدت) في العربية الجنوبية . و (قرن) وهي في المعنى نفسه[5] . و (تحسبن) بمعنى عنف واستخدام العنف[6] . ولفظة (هرج) بمعنى الفوضى والقتل والهرج[7] . و (مخر) بمعنى مخالفة وقتال[8] .

ونجد في كتابات المسند ألفاظاً اخرى ، لها صلة وعلاقة بالأوضاع المذكورة . مثل لفظة (هبعل) في معنى الاعتراف بسيادة قوم على قوم . وبالتسليم بسيادة الرؤساء بعد ان ثاروا عليهم وحاولوا التخلص منهم . ولفظة (هوبل) في معنى النجاح في المطاردة والتوفيق في القضاء على العصيان ، وعودة الأمر الى ما كان عليه . ولفظة (همسر) بمعنى احبط وكسر . و (همحت) ، بمعنى تحطيم والقضاء على شيء ، كحركة عصيان . و (هضرع) بمعنى أخضع و (حلفى)

---

١ الحيوان (٢/٩٤ وما بعدها) ، (هارون) .
٢ South Arabian Inscriptions, p. 437.
٣ المصدر نفسه (ص ٤٤١) .
٤ (ص ٤٤٢) من المصدر المذكور .
٥ (ص ٤٤٧) من المصدر المذكور .
٦ (ص ٤٥٠) من المصدر نفسه .
٧ (ص ٤٣٣) من المصدر نفسه .
٨ (ص ٤٣٩) من المصدر المذكور .

بمعنى ضغط واستعمل العنف . و (حف) بمعنى أحاط . و (خرط) بمعنى الاستيلاء على شيء . و (نحت) بمعنى ضرب . و (نكى) في معنى قاسى وكابد من الألم والعذاب . و (نقيذ) بمعنى استولى على مكان وفتحه . و(سبط) بمعنى أحبط وقضى على ثورة . و (سحت) في معنى هزيمة . و (قمع) في المعنى المعروف منها في لهجتنا . و (رتضح) بمعنى ذبح . و (توشع) في معنى هزيمة . و (تشكر) في معنى هزيمة ايضاً . فلكل هذه الكلمات ولغيرها مما في معناها صلة بالأوضاع السياسية والعسكرية التي كانت سائدة في ذلك العهد . وهي دليل علي سوء الحال .

تحية الملك :

وكانت لملوك الحيرة وملوك الغساسنة وغيرهم من ملوك الجاهلية تحيات تختلف عن تحيّات سائر الناس . لأن الملك يحيا بتحية الملك المعروفة للملوك التي يباينون فيها غيرهم . ومن تحياتهم : أبيت اللعن ، وأسلم وانعم ، وانعم صباحاً ، وعش ألف سنة . (وكانت تحية ملوك العجم نحواً من تحية ملوك العرب ، كان يقال لملكهم : زه هزار سال ؛ المعنى : عش سالماً ألف عام)[1] .

وذكر بعض علماء اللغة أن (أبيتَ اللعن: كلمة كانت العرب تحيي بها ملوكها في الجاهلية ، تقول للملك : أبيت اللعن ، معناه أبيت ايها الملك ان تأتي ما تلعن عليه . واللعن : الإبعاد والطرد من الخير)[2] . وذكروا ان أول من حيي بتحية الملوك : (أبيت اللعن) و (أنعم صباحاً) يعرب بن قحطان[3] . وقد وردت تحية (أبيت اللعن) في شعر للنابغة الذبياني ، يعتذر فيه للنعمان بن المنذر :

أتاني ــ أبيت اللعن ــ انك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع[4]

وذكر أيضاً ان اول من قيل له ذلك قحطان . وقيل : اول من حيي بهـا يعرب بن قحطان[5] .

١ اللسان (١٤/٢١٧) ، (حيا) .
٢ اللسان (١٣/٣٨٧) ، (لعن) .
٣ العمدة (٢/٢٢٥) .
٤ الصاحبي (ص ٩١) .
٥ تاج العروس (٩/٣٣٥) ، (لعن) .

وذكر ان تحية الناس فيما بينهم : (أنعم صباحـاً) او (انعم مساء) او (انعم ظلاماً)،و (عموا صباحاً) و (عموا مساء) ، وذلك حسب المناسبات . أمـا إذا حيوا الملك ، قالوا له : (انعم صباحاً ايها الملك) ، لهيبـة الملك ولتعظيمه[1] .

وقد ابطل الإسلام تلك التحية : بأن أحل السلام محلها . فلما دنا (عمير بن وهب) من رسول الله قال : (انعموا صباحاً) ، فقال رسول الله : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ؛ بالسلام تحية اهل الجنة »[2] . وقد صار السلام من العلامات الفارقة بين الشرك والإسلام .

وذكر ان التحيّة الملك . وفي هذا المعنى قولهم : حيّاك الله وبيّـاك ، اي اعتمدك بالملك . وفي هذا المعنى قول زهير بن جناب الكلبي :

ولكل مـا نال الفتى قـد نلته إلا التحيّة

أي إلا الملك ، وذكر ان المراد بها هنا البقاء ، لأنه كان ملكاً في قومه[3] . والتحية في قول (عمرو بن معديكرب) :

أسير به الى النعمان ، حتى أنيخ على تحيته بجندي

تعني ملكه . فالتحية الملك[4] .

ويظهر ان بعض الجاهليين كانوا يحيون بتحية (حيّاك وبيّاك) ، او (حياك الله) ، او (حيّاك الله وبيّاك)[5] . ولا استبعد استعمالهم اسم صنم من الأصنام في موضع (الله) عند عبّاد ذلك الصنم ، كأن يقولون : (حيّاك هبـل) ، وقد بقيت هذه التحية الى الاسلام ، ثم صارت : (حيّاك الله) . وقد يخاطبون بها الملوك فيقولون : (حيا الله الملك) . وذكر ان تحيات اهل الشأم لملوكهم:

---

١ الصاحبي (٩١) .
٢ الطبري (٢/٤٧٣) ، (دار المعارف) .
٣ اللسان (١٤/٢١٦) ، (صادر) ، (حيا) ، تاج العروس (١٠/١٠٦ وما بعدها)، (حيى) .
٤ المصدر نفسه ، بلوغ الارب (٣/٢٠٣) .
٥ تاج العروس (١٠/١٠٧) ، (حيى) .

(يا خير الفتيان)[1] .

والمعروف عن العرب أنهم لم يكونوا يسجدون للملوك ولساداتهم كما كان يفعل العجم . غير ان روايـــة وردت في (كتاب فتوح الشام) للواقدي تذكر ان (الياس) ، وهو عم ملك الحيرة وصاحب حرسه ، لما أدخل (سعد بن أبي عبيد القاري) ، على الملك (النعمان بن المنذر) ، (صاح به الحجاب والغلمان قَبّل الأرض للملك ، فلم يلتفت اليهم)[2]. وفي هذا الخبر دلالة على ان أهل الحـــيرة كانوا إذا دخلوا على الملوك سجدوا لهم : كما كان يفعل ذلك غيرهم من الغرباء ممن يدخل على الملوك ولا سيما الفرس . وتتحدث هذه الرواية المنسوبة الى الواقدي ، بأن الملك النعمان ، كان له كلام وجدل في موضوع الدين ورسالـــة الإسلام مع (سعد بن أبي عبيد القاري) رسول (سعد بن أبي وقّاص) اليه . وأنه لما طرد الرسول ، قال (سعد بن أبي وقّاص) :

سأحمل فيهم حملـــة عربيـــة ولا أنثني والله عنهم بعسكري
فإما أرى النعمان في القيد موثقاً وإما طريحـــاً في الدماء المعفر

ثم أمر سعد بن أبي وقاص جمعه بالمسير نحو النعمان ، فالتقى القعقاع بن عمرو التميمي أو بشر بن ربيعة التميمي بالنعمان في كبكبة من الخيل ، فحمل القعقـاع أو بشر على الكبكبة أو الكتيبة فزقها ، ورمى النعمان بطعنة في صدره ، فلما رأت جيوش الحيرة الملك مجندلاً ، ولت الأبار تريد القادسية نحو جيش الفرس[3] .

والذي أجمع عليه المؤرخون واهل الأخبار ، ان المنذر كان قد ذهب الى العالم الثاني قبل الفتح ،بزمن على نحو ما تحدثت عنه في الجزء الثالث من هذا الكتاب . وقد ذكرت ما قيل في موته من شعر نظمه شعراء معاصرون له ، وما وقع من اصطدام بين العرب والفرس بسبب مطالبة (كسرى) بتركته على ما يذكره أهل الأخبار . لذلك لا يمكن التصديق بهذه الرواية مع وجود ذلك الاجماع، ثم ان فيها معالم الصنعة والتزويق،ولا سيما في موضوع الحوار بين النعمان وبين رسول (سعد) اليه في موضوع الاسلام ، مما يحملنا على القول بأن هذا الخبر قد أدخل فيما بعد

---

١ أيام العرب (ص ٤٢) .
٢ الواقدي ، فتوح الشام (٢/١٨٥ وما بعدها) .
٣ فتوح الشام (٢/١٨٧ وما بعدها) .

في هذا الكتاب المنسوب الى الواقدي ، وهو لمؤلف متأخر عنه ، جمع مؤلفه من روايات أخذها من (فتوح الواقدي) ومن كتب أخرى ومن روايات متأخرة ، فألّف منها هذا الكتاب .

ومن قواعد ملوك الحيرة في مخاطبة من هم دونهم من أصحاب المنازل قولهم لهم : (يا عام) ، وقولهم (انك هابل)[1] .

وللملوك عادات في مكالمة الناس ومحادثتهم . وهم يراعون بصورة عامة منزلة ودرجة من يتحدثون معه . فإذا كان المخاطب من ذوي المكانة كأن يكون سيد قبيلة ووجيه قوم ، كلّموه بما يليق به ، وإن كان من سواد الناس القادمين للحصول على صدقة وحسنة ، أو على انصافه ومساعدته كلّموه بأسلوب آخر . ثم انهم كانوا يستعملون الكلام الغليظ الشديد مع مخاطبهم ، اذا أزعجهم أو اذا كانوا غاضبين عليه . وهكذا يكون لكل موقف كلام .

ويظهر من شعر للأعشى ، هو :

فلما أتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا

ان العرب ، أو بعضاً منهم ، كانوا يسجدون للملوكهم . و (العمار) ريحانة كان الرجل يحيي بها الملك مع قوله : عمرك الله . وقيل : هي رفع الصوت بالتعمير ، أي بالدعاء . وقولهم : عمرك الله . وروي : ووضعنا العمارا ، والعمار العمامة ، أي وضعناها من رؤوسنا إعظاماً له . ومن العمار قولهم : عش ألف سنة لعمرك[2] . والذين فعلوا ذلك هم عرب الحاضرة ، تأثروا بما فعله الأعاجم بالنسبة لملوكهم ، فعملوا بهذه المراسيم .

دور الندوة :

وللدول العربية الجنوبية مجالس استشارية تسمى (مزوداً)[3] ، من واجبها النظر

---

١ النوادر (ص ١٧٧ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٤٢٢) ، (عمر) .
٣ الحرف الثاني لا وجود له في أبجديتنا ، وهو بين الزاي والسين ، وقد عبرت عنه بحرف الزاي لأنه أقرب الحروف نطقا اليه .

في المشكلات التي تتعرض لها الدولة ، والبت في القضايا المهمة وفي موضوع فرض الضرائب . وقد عرف هذا المجلس في دولة معين بـ (مزودن معن) (مزود معن)[1] . وكان للسبئيين مجالسهم الخاصة بهم ، تنظر في المسائل التي يحتاج ملوك سبأ الى اخذ الرأي فيها والوقوف على رأي عقلاء الأمة للاستنارة برأيهم عند اتخاذ رأي وإقرار قرار .

ولا يعني وجود هذه المجالس ان النظام هناك كان نظاماً نيابياً انتخابياً، يجتمع الأحرار والوجهاء فينتخبون من يريدون ان يمثلهم او يتكلم باسمهم انتخاباً على النحو المفهوم من الانتخاب في الزمن الحاضر . وإنما كانت عضوية المجالس بالوجاهة والمنزلة والمكانة ، وتلك قضايا اعتبارية للعرف فيها الرأي والقرار ، وأعضاء المجلس هم اعضاء فيه ، لأنهم من رجال الدين او سادات قبائل او من كبار الموظفين ، او من اصحاب الأرض والمال ، فهم في عرف ذلك اليوم الصفوة والخيرة ، وعندهم العقل والرأي والسداد . وعل هذا النحو من التمثيل تكون المزاود ، اي مجالس الأمة .

وقد عرف أعضاء المزود بـ (اسود) ، اي (أسواد) (اسياد) ، بمعنى سادة ، وهم بالطبع من علية القوم وساداتهم . وفي ضمن هؤلاء الـ (منوت) (منوات)[2] .

وكما تطلق الشعوب في الزمن الحاضر نعوت التفخيم والاحترام على مجالسهم التمثيلية ، كذلك اطلقت الشعوب الماضية مثل هذه النعوت على مجالسهم . فأطلق العرب الجنوبيون لفظة (منعن) مثلاً على المزود ، فورد : (مزود منعن) في بعض الكتابات ، بمعنى (المزود المنيع)[3] . وربما أُطلقت اللفظة على العضو في هذا المجلس كذلك[4] . ولكننا لا نعرف ذلك في هذا اليوم معرفة أكيدة ، وربما كانوا يطلقون نعوت تفخيم وتعظيم أخرى على أعضاء هذا المجلس .

وحصلنا من الكتابات على اسم مجلس يسمى بـ (طبن) ، وذلك في الكتابات

---

١ REP. EPIG. 2771, 3458, Grohmann, S. 128.

٢ REP. EPIG. 3562, A. Grohmann, S. 128.

٣ Glaser 1150, Halevy, 192, 199.

٤ RHODOKANAKIS, Stud., II, S. 66. ff.

القتبانية . وقد رأى بعض الباحثين انه مجلس كبار الملاكين[1] . ورأى آخرون انه بمنزلة (المزود) بالنسبة الى القبيلة ، وانه مجلس أصحاب الأملاك،ورؤساء أفخاذ القبيلة المالكين ، وانه يأتي بعد (المزود) في الأهمية عند القتبانيين[2] ، وانه كان ينظر في المسائل الخاصة بالملك والأرض وفي الضرائب التي تجبى عن الزراعة وفي تأجير الأرض ، وما شاكل ذلك من موضوعات تخص الأرض والزرع . ويقول علماء اللغة إن (الطبن) ، هو الرجل الفطن الحاذق العالم بكل شيء[3] ، ولعلهم أخذوا هذا التفسير من العرب الجنوبيين . فـ (طبن) ، هو مجلس عقلاء القوم وحذاقهم والمتكلمين باسم القوم .

ولم يكن لسواد الناس ولا للطبقات الوسطى منهم،رأي ولا تمثيل في (الطبن) ذلك لأن هذا المجلس هو مجلس كبار الملاكين للأرض فقط . وكانوا يشتركون في الـ (المزود) . ونجد ذكر هذا المجلس في كتابات يرى بعض الباحثين انها من أواسط القرن الخامس قبل الميلاد[4] .

ويقابل مجلس الملاّكين (طبن) القتباني مجلس عرف بـ (مسخن) (المسخن) في اللهجة السبئية . وقد أشير اليه في الكتابات السبئية القديمة وفي كتابات عهد (ملوك سبأ وذي ريدان)[5] . وأعضاؤه من الوجهاء وكبار الملاّكين الذين ورثوا ملكهم من عقار وأرض[6] .

وترد في الكتابات السبئية لفظة لها علاقة بمجلس يمثل طبقة خاصة في سبأ . عرف بـ (عهرو) (عهر) . ونجد هذا الاسم في الكتابات التي هي من القرن الثاني قبل الميلاد فما بعده . ويظهر أنه كان مجلس الأشراف من اهل الحسب والنسب من امثال الأشراف والنبلاء الذين عاشوا في اوروبة في القرون الوسطى . ولا يشترط في الطبقة المسماة بهذه التسمية ان تكون من كبار الملاكين وأصحاب العقار . والى

---

١ A. Grohmann, S. 128.

٢ راجع السطر الرابع من النص : Glaser 1606.

٣ اللسان (١٣٢/١٧) ، القاموس (٢٤٤/٤) .

٤ A. Grohmann, S. 127, Rhodokanakis, Grundsatz, 33, Handbuch, I, S. 125, Glaser 1606.

٥ CIS, 60, Grohmann, Südarabien als Wirtcshaftgebiet, I, 95, Handbuch, I, S. 122.

٦ Handbuch, I, S. 122.

هؤلاء يضاف من يقال لهم (ذا عذر) (ذو أعذر) . وهم طبقة من اشراف لا يربط بينهم دم ، ولا تجمع بينهم وبين القبيلة التي ينزلون بينها او بين الناس الذين يعيشون بينهم ، صلة رحم . ولا يملكون أرضاً ، وإنما هم حلفاء وجيران، نزلوا بين قوم فصاروا مثلهم ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، يؤدّون ما يؤدّيه حليفهم من القبيلة من واجب وعمل ، وعلى حليفهم مراعاتهم ، لأنهم في جواره وفي حلفه[1] .

هؤلاء هم أصحاب الرأي والاستشارة في الحكومات العربية الجنوبية ، والمجالس المذكورة تنظر في مصالح المنتمين اليها وكلهم كما رأينا من أصحاب الجاه والسيادة والسلطان .

وإذا أقر (المزود) موضوعاً ووافق عليه ، رفع القرار الى الملك لإصدار أمره بتنفيذ ما توصل اليه ، وتصدر القرارات بصورة مراسيم تشريعية ملكية تعلن للناس وتبلغ للقبائل لإقرارها وتنفيذها ، وقد حفظت الكتابات جملة قرارات من هـذا النوع[2] . وتوقع المحاضر في الغالب بلفظة (مثبت) من أصل (ثبت) ، وذلك دلالة على الموافقة والتأييد بصحة صدور القرار[3] . وأن القرار قد ثبت وصار أمراً إلزامياً واجب التنفيذ .

واصطفى الملوك لهم حاشية من ذوي الرأي والعقل والتجربة ، جعلوها هيـأة استشارية ، تقدم الرأي لهم ، وقد عرفت بـ (فقضت) ، وبـ (بتل)[4] .

فنحن في اليمن إذن بإزاء نظام يمكن أن نسميه نظاماً تمثيليـاً ، وإن لم يكن يمثل رأي الشعب تمثيلاً تاماً ، فلم تكن للأغلبية المكوّنة للأمة إرادة في اختيـار ممثليهم للمجالس ، كما هو المفروض والمطلوب من المجالس،فمن هنا لم يكن نظام الحكم في هذه البلاد نظاماً تمثيلياً صحيحاً،ولكنه كان تمثيلياً من ناحية ضمه أصحاب الرأي والجاه والسلطان في الدولة ، لمجالس (المزود) وإبدائها رأيها لحاكم البلاد ، ولا سيما في المسائل الكبرى التي يتوقف عليها المصير،مثل إعلان حرب،أو عقد صلح، أو إقرار ضرائب . نظام نستطيع أن نسميه نظام الأخذ بمبدأ استشارة ذوي الرأي

---

١ A. Grohmann, S. 125, Handbuch, I, S. 124, 133.

٢ Handbuch, I, S. 122.

٣ Rhodokanakis, Stud., II, S. 85.

٤ Glaser 1606, Grohmann, S. 128.

والوجاهة والسلطان في المسائل الخطيرة التي تخص الدولة أو المجتمع وحدهم ، فهو نظام شورويّ بالنسبة لأهل الرأي والمشورة ، وهؤلاء وحدهم هم الذين يشاورون في الأمور . أما السواد ، فلا رأي له . ومع ذلك ، فهو أفضل من الحكم المطلق الذي يكون الملك فيه هو الكل في الكل ، يفعل ما يشاء من غير حساب . وهو بالقياس إلى نظم الحكم عند الأشوريين أو البابليين أو الفراعنة ، نظام فيه (ديمقراطية) لا نجدها في قواعد حكم الشعوب المذكورة .

ولكن الدنيا لا تدوم على حال واحد ، فأخذ حكم المزاود يتقلص،وصار عدد من يأخذ بالرأي والمشورة من الملوك يقل حتى إذا جاءت الأيام المتأخرة من حكومة سبأ ، صار الأمر للأقيال والأذواء وسادات القبائل ، واضطر الملوك إلى النزول عن حقهم في الأرضين إلى أصحاب السلطان في مقابل اتفاقيات تحدد الواجبات والحقوق التي يترتب على هؤلاء الأقوياء الذين اغتصبوا الأرض اغتصاباً أداؤها للدولة . ويقوم صاحب السلطان الملاّك بإيجار الأرض لأتباعه من آله أو من أهل قبيلته ، مقابل أجر يدفعونه له ، وهؤلاء يؤجرونها أيضاً لمن هم دونهم في المنزلة والدرجة . فتحولت الملكية بذلك إلى دولة اقطاع، أرباحها وحاصلها وناتجها وقف على طبقة ذوي الجاه والسلطان .

وفقد (المزود) مكانته ، إذ انتزع الأقيال (اقول) منه السلطان ، حتى قدموا أسماءهم في النصوص على اسم المزاود . فنجد أقيال (سمعى) (اقول سمعى) يقدمون اسمهم على اسم المزود ، دلالة على خطر شأنهم وقوتهم ، وعلى أن حكم (المزود) صار في الدرجة الثانية من خطر الشأن في هذه الأيام[1] .

وقد تضاءل حكم (المزود) ، بل زال من الوجود منذ القرن الثالث للميلاد فما بعده ، فلا نكاد نجد له حكماً أو ذكراً في الكتابات ، إذ انفرد الملوك والاقطاعيون الكبار بالحكم ، وصار رأيهم هو الرأي الحق المقبول ، وبيئة ينفرد فيها الأفراد بالحكم ، وينتزع فيها من الأشخاص حق التعبير عن الرأي ، هي بيئة لا يمكن أن يعمر فيها (المزود) أو أي مجلس كان من قبيله يقوم بالتعبير عن رأي الناس ، وإن كان بصورة رمزية شكلية . لذلك نستطيع أن نقول إن العربية الجنوبية فقدت أهم نعمة كانت عندها، نعمة التعبير عن الرأي،والنظم اللامركزية

---

١ Glaser 1210.

بعد الميلاد . وزاد في تقليص حكم تلك المجالس تدخل الحبش بصورة مستمرة في شؤون العربية الجنوبية ، وانتزاعهم الحكم بالقوة من أصحابه الشرعيين وانفراد حكامهم وحدهم بالحكم ، ثم اضطرار الملوك والأقيال والأذواء إلى مقاومة الحبش الغزاة وحشد كل الطاقات البشرية لطرد الحبش من بلادهم ، وأحوال مثل هذه لا تسمح بابداء رأي ، فكان فيها موت تلك المجالس التي لم تكن كما قلت تمثل الشعب ، لأنها لا تمثل السواد الأكبر ،وإنما كانت تمثل أصحاب الوجاهة والسلطان ولكن وجود شيء فيه وقوف إزاء الملوك وتحد لسلطانهم إن أرادوا توسيعه ، هو مهما كان نوعه خير من لا شيء ومن انفراد الملوك بالأمر دون خوف ولا رهبة من اعتراض أحد ومن نقد ناقد .

هذا ، ولم نعثر على نص بالمسند ، ورد فيه ذكر لعدد أعضاء المزاود أو المجالس التمثيلية الأخرى . أما ما ذكره (الهمداني) من انه كان لحمير مجلس ينظر في أمور الملك واختيار الملك إذا مات الملك ولم يترك من يرثه ، وان عدد أعضاء ذلك المجلس ثمانون قيلاً ، لا ينقص ولا يزيد ، وانهم إذا انتخبوا قيلاً منهم ليكون ملكاً عند عدم وجود من يخلف الملك ، أو عدم رضائهم عن الملك لسبب من الأسباب ، فإنهم كانوا ينتخبون قيلاً جديداً ليكمل العدد المقرر[1] ، فإننا لا ندري أكان ذلك حكاية عن وضع الحكم في اليمن في قبيل الاسلام ، أم كان مجرد رواية من هذه الروايات الواردة عن الجاهلية ، مما يرويه أهل الأخبار. وقد نحمل روايته محمل الصدق بالنسبة إلى مجمل الخبر . أما بالنسبة إلى ثبات العدد فأمر لا نستطيع أن نأخذ به ونقطع بصحة ما ورد فيه .

وظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد فما بعده ظاهرة جديدة أخرى ، قد تدل على ضعف شخصية الملوك ، وتقلص سلطانهم ، هي ظاهرة ذكر اسم ولي العهد مع اسم الملك ، وتلقيبه بلقب ملك تماماً كما يلقب الملوك . فجاء اسم نهفان مع ابنه (شعرم اوتر) (شعر أوتر) ، دلالة على أنهما حكما حكماً مشتركاً ، وجاء اسم ملك ، وجاء اسم ملك وجاء مع اسمه اسم أخيه يحكم معه ويحمل لقب الملك ، وجاء اسم ملك ومعه اسم ابنين أو ثلاثة أبناء ، يشاركونه في اللقب

---

١ الإكليل (٢/١١٤) .

وفي الحكم ، بل ورد اسم ملك ومعه حفدته يحملون لقب الملك[1] .

وظاهرة أخرى نراها تظهر ، فيها دلالة أيضاً على تناحر الأسر وتقاتلها على الجاه والحكم والسلطان ، تتجلى في حكم أسرتين مختلفتين ، إحداهما من (حاشد) وأخرى من (بكيل) ، وكلتاهما من همْدان ، وقد حمل كل واحد من رجلي الأسرتين اللقب الرسمي لملوك سبأ . فقد حكم (علهان نهفان) وابنه (شعر أوتر) وهما من (حاشد) ، وحكم في الوقت نفسه (فرع ينهب) ، وابنه ، وهما من (بكيل) ، وكان كل واحد منهما يلقب نفسه بألقاب ملوك سبأ . ثم نجد من ذيول هذه الظاهرة منافسة (ظفار) لمأرب ، ومبارزة قصر ملوك (ظفار) وهو (ذو ريدان) لقصر ملوك سبأ القديم وهو (سلحن) (سلحين) . وفي هذه المنافسة دلالة على تنافس أسرتين على الحكم ، كل أسرة تدعي أنها حاكمة سبأ ومالكة مملكة سبأ[2] .

وكان من نتائج هذا التطور ظهور حكم لا أودّ تسميته بـ (حكم لامركزي) ، ولكن أرى تسميته : حكماً إقطاعياً ، أو حكم (أمراء الطوائف) ، أو حكم رؤوس الطوائف . فقد صار الأمر والنهي للأقيال وللأذواء ، وللسادات وقادة الجيش ، حتى تكاثر عددهم ، وحتى صارت لهم كلمة في اختيار الملوك وفي إسقاطهم . ونجد في الكتابات المتأخرة أسماء عدد كبير من هؤلاء الإقطاعيين ، دلالة على مكانتها ، وخطر شأنها في السياسة العامة ، ولم تختف هذه الظاهرة حتى بعد احتلال الحبش لليمن ، وحتى بعد طرد الحبش عنها ودخولها في حكم الفرس إلى أيام الإسلام[3] .

وكان مما قوى سلطان الإقطاعيين الحروب التي أعلنها الملك (شمر يهرعش) على جيرانه . لقد تمكن من توسيع رقعة سبأ ومن إضافة أرضين جديدة واسعة لها ، ومن إحاطتها بهالة من العظمة ، ولكنه اضطر من ناحية أخرى إلى إرضاء الإقطاعيين الذين ساعدوه وخدموه في حروبه وأدوا له خدمات كبيرة ، فوسع سلطانهم ، وقوّى مركزهم ، وصيّرهم قوة ذات شأن لها سلطان في الدولة ،

---

١ Ryckmans, L'Institution, 207, Grohmann, S. 130, CIH 314, 398, 934, Ryckmans, 203.

٢ Ryckmans, L'Institution, p. 207, Grohmann, S. 129.

٣ Grohmann, S. 130.

فأضعف بعمله مركز الحكومة ، ووضع من جاء بعده من الملوك في مركز حرج أمام كبار الإقطاعيين الذين أخذوا يتدخلون في أمور الدولة، وينافسونها في سلطانها. وهكذا زالت معالم الحكم (الاستشاري) للأقيال ، وحل محلّه حكم الملوك المستند الى تأييد عدد من كبار رجال الإقطاع وسادات القبائل ، وهو حكم راعى بالطبع مصالح هؤلاء ، ولم يهتم بمصالح سواد الناس ، بل حتى مصالح الإقطاعيين الذين لم يكن لهم سلطان كبير ، فأصيبوا بضرر بالغ من هذا التغيير الدستوري في أصول الحكم .

وقد كان ملوك العربية الغربية ، مثل ملوك العربية الجنوبية ، يأخذون بالرأي ويعملون بمشورة المجالس . ويعرف مجلس الشورى في الكتابات اللحيانية بـ (هجبل) (الجبل) و (جبـــل)[1] . وقد نعت المجلس بجملة (العالي الشأن) في إحدى الكتـــابات[2] ، تعظيماً له ، وتقديراً لشأنه . ومما يؤيد أخذ الملوك برأي المجلس (جبل) هو ورود لفظة (براى) ، أي (برأي) في الكتابات ، دلالة على أخذ الملوك برأي المجلس[3] .

بل ذهب بعض الباحثين الى احتمال وجود أحزاب سياسية في مملكة لحيان[4] . غير أننا لم نتمكن من الحصول على كتابات لحيانية فيها شيء عن الحزبية والأحزاب في ذلك العهد .

أما أصول الحكم عند (آل لخم) ، فإننا لا نملك نصوصاً لها مدونة ، كذلك لا نملك نصوصاً فيها شيء عن أصول الحكم عند الغساسنة . ولم يشر أهل الأخبار الى وجود مجالس على نمط (المزود) أو (دار الندوة) عند المناذرة أو الغساسنة، لذلك لا نستطيع أن نتحدث بأي حديث عن الشورى وأخذ الرأي عند اللخميين، أو عند آل غسان .

بـــل يستنبط من بعض روايات أهـــل الأخبـــار ، ان ملوك (آل نصر) و (آل غسان) و (آل آكل المرار) ، كانوا ملوكاً غلب على حكمهـــم

---

١ Caskel, Lihyanisch, No. 71, 77, 87, 91.

٢ JS41, Caskel, Lihyanisch, S. 109.

٣ Arabien, S. 50.

٤ Euting 51, Grohmann, S. 50, Caskel, Lihyanisch, 40, 42, Jaussen-Savignag, Mission, II, 371.

الاستبداد بالرأي ، إذ لم يعملوا برأي أحد ، ولم يأخذوا بمشورة مستشار إلا إذا كانت المشورة موافقة لهواهم ومن شخص قريب منهم ، وله أثر فعلي عليهم . كما يستنبط منها ايضاً ان المقربين من الملوك ، لم يكونوا مخلصين لهم في تقديم النصيحة ، بل كانوا يبتغون من ورائها الحصول على منفعة وفائدة ، أو ضرراً يلحق بأعدائهم ، وبالقبائل المعادية لقبائلهم في كثير من الأحايين . وان بعض الملوك ، ولا سيما المتأخرون منهم ، كانوا قد تأثروا بآرائهم فعملوا بها،فأوجدت لهم مشكلات خطيرة،كان الملوك في غنى عنها،لو انهم كوّنوا مجالس استشارية ، وأخذوا برأيها في تسيير النابه من أمور المملكة .

أما القرى والمدن إن جازت هذه التسمية ، فقد حكمها وجهاؤها وساداتها رؤساء الشعاب والبيوتات الكبيرة . فإذا حدث حادث في شعب حلّه رؤساء ذلك الشعب ، وإن عرض للقرية أو للمدينة عارض اجتمع سادتها للنظر فيه وحلّه ، واليهم يكون تسيير أمور القرية او المدينة . يجتمعون في (نادي) القرية او المدينة، وهو مجتمعها للنظر في الأمر والبت فيما يرون اتخاذه من قرارات . وقد ورد في القرآن الكريم : « وتأتون في ناديكم المنكر »[1] . والنادي هنا المجلس ، ومجتمع القوم ، وموضع اتخاذ القرارات والبت في الأمور .

وكان لأهل (تدمر) (مجلس) على غرار مجلس (الشيوخ) في (رومة) مؤلف من سادات المدينة من أصحاب الجاه والسلطان له سلطة من القوانين والتشريع، وله رئيس وكاتب .

دار الندوة :

وقد تحدث اهل الأخبار عن دار قالوا انها كانت بمكة سمّوها (دار الندوة) ونسبوها إلى جد قريش ومجمعها (قصيّ) ، قالوا : إن قريشاً كانت إذا همت بأمر أو أرادت رأياً ، أو قررت اتخاذ قرار ، اجتمعت فيها ، ونظرت في أمرها واتخذت فيها قرارها . فهي إذن مجلس يشبه (المجالس) التي كانت في مدن اليونان ، وقد كوّنوها لتكون حكومة المدينة المشرفة على شؤونها المدبرة لأمورها الناظرة فيما يقع فيها من خصومات وخلاف .

---

١ العنكبوت ، السورة رقم ٢٩ ، الآية ٢٩ .

وذكر بعض اهل الأخبار، انه لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصيّ إلا ابن أربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصيّ كلهم أجمعون وحلفاؤهم[1] والظاهر ان هذا كان خاصاً بالمشورة وأخذ الرأي . لما كان قد قرّ في نفوس أكثر الناس من أهمية السن في تقديم الرأي ، ومن أن النضوج العقلي يبدأ في الأربعين من العمر . وإذا صحت الروايـــة ، نكون أمام شرط مهم فيمن يحق له حضور دار الندوة لابداء المشورة والرأي . لكننا نسمع من رواة الأخبار أيضاً ، أنهم يـذكرون أن قريشاً كانت تتساهل في موضوع السن أحياناً ، فكانت تتساهل في قبـول دخول من هو دون الأربعين من العمر إذا كان الشخص سديد الرأي . فقـــد « تحاكم العرب في الجاهلية في النفورة، وفي غير ذلك من المخايرة والمشاورة، الى أبـي جهل ابن هشام في أيام حداثته وفتائه ، ولذلك أدخلوه دار النـــدوة ، ودفع مع ذوي الأسنان والحنكة من بين جميع الشبان ، ومن بين جميع الفتيان .

ولذلك قال قطبة بن سيّار حكيم فزارة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة ابن علاثة : عليكم بالحديد الذهن ، الحديث السن يعني أبا جهل »[2] .

الملأ :

وفي القرآن الكريم لفظة (ملأ) بمعنى جماعة يجتمعون على رأي[3] . وتعبر هذه اللفظة عن الغالبية ، أي عن الرأي العام الغالب لمكان ما ، أو لجماعة من الجماعات. ومعنى ذلك اتخاذ (أهل الحل والعقد) من الملأ رأياً يكون ملزماً للآخرين. وأهل الرأي والحل والعقد ، هم السادة أصحاب الجاه والعقل والسن ، ولـــذلك كانوا يفضلون في أخذ الرأي ، أخذ رأي أصحاب العقل والخبرة ، وهم المتقدمون في السن في الغالب، ففي صغر السن طيش وتسرع ، والبت في الأمور يحتاج الى نضج وصبر وأناة وحلم . لهـــذا كان أكثر رجال (دار الندوة) من البالغين المتقدمين في السن[4] .

---

١ الأزرقي (١/٦٥) .
٢ رسائل الجاحظ (١/٣٠٠) ، (رسائل في نفي التشبيه) .
٣ المفردات ، للاصفهاني (ص ٤٩٠) .
٤ الأزرقي (١/٦١) .

وعرف علماء العربية (الملأ) أنه الرؤساء والجماعة وأشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع الى قولهم ، « يروى أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، سمع رجلاً من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر ، يقول : ما قتلنا إلا عجائز صلعاً ، فقال عليه السلام : أولئك الملأ من قريش ، لو حضرت فعالهم ، لاحتقرت فعلك » أي : اشراف قريش . فالملأ إنما هم القوم ذوو الشارة والتجمع للادارة [1] .

وورد ان (الملأ) التشاور والعلية . ويظهر من المواضع العديدة التي وردت فيها هذه الكلمة في القرآن الكريم ، ان المراد بها في اكثر تلك المواضع ، علية القوم من ذوي الرأي والمكانة ، والأشراف من القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يُرجع إلى قولهم . وذكر ان (الملأ) : التشاور . تشاور الأشراف والجماعة في أمر ما [2] .

فرؤساء مكة إذن ، هم حكومتها وحكامها ، وليس هناك ملك أو حاكم انفرد بالحكم والسلطان . فالحكم فيها إذن ، حكم مدينة ، لا حكم ملك او فرد ، وقد كان الحكم في الطائف وفي يثرب وفي نجران ، وفي وادي القرى على مثل هذه الطريقة ، غير ان الأخباريين لم يتحدثوا عن مجلس يشبه دار الندوة في هذه المدن.

وفي القرآن الكريم : « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر »[3]، و « أمرهم شورى بينهم »[4] . وفي هاتين الآيتين دلالة على الأخذ بمبدأ المشورة، وان الحكم شورى . وحكم قريش في مكة ، هو حكم المشاورة وأخذ الرأي ، لهذا كانوا يتشاورون فيما بينهم حينما كانوا يعتزمون اتخاذ قرار تجاه الرسول . وقد بينت ان أصحاب الرأي والمشورة هم (الملأ) وعلية القوم ومن عرف بجودة الحكم والفطنة والذكاء .

وكانت القرى الأخرى تستشير ذوي الحل والعقد . وكذلك فعلت القبائل . فقد كان سيد القبيلة يطلب من وجوه قبيلته ابداء رأيهم في القضايا المهمة من أمور الحرب والسلم . وكان سادات القبيلة ، يجتمعون للنظر في امر اختيار رئيس ،

---

١ اللسان (م/ل/أ) ، (١/١٥٩) .
٢ تاج العروس (١/١١٩) ، (ملأ) ، تفسير الطبري (٢/٣٧٣) .
٣ آل عمران ، الرقم ٢٣ ، الآية ١٥٩ .
٤ الشورى ، الرقم ٤٢ ، الآية ٣٨ .

إذا مات رئيس وليس له وريث ، أو وقع خلاف فيما بين أعضاء بيت الرئيس على الرئاسة . وقد حث العرب على الأخذ بالرأي والمشورة ، حتى لا يقع المرء في الخطأ والتهلكة . والرأي : النظر والتدبير والتفكير[1] . وقد قدمه العرب على الشجاعة ، فجعلوه قبلها ، لأن الشجاعة لا تنجح ما لم يكن للشجاع رأي ونظر في كيفية التغلب على خصمه .

المشاورة :

وقد كرهت العرب والحكماء مشاورة من اعترته الشواغل ، وألمت به النوازل ، مع وفور عقله وحزمه ، فقال (قس بن ساعدة الإيادي لابنه : لا تشاور مشغولاً وإن كان حازماً ، ولا جائعاً وإن كان فهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً ، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً ، فالهمّ يُعقِل العقلَ فلا يتولد منه رأي ولا تصدق به روية) . و (قال الأحنف بن قيس : لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروى ، ولا الأسير حتى يطلق ، ولا المقلّ حتى يجد ، ولا الراغب حتى ينجح)[2] .

وكانت العرب تحمد الأناة في الرأي ، واجالة الفكرة فيه وعدم التسرع . (وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول : دعوا الرأي يغب حتى يختمر ، وإياكم والرأي الفطير)[3] .

واجتمع رؤساء بني سعد إلى أكثم بن صيفي يستشيرونه فيما دهمهم يوم الكلاب ، فقال : إن وهن الكبر قد فشا في بدني ، وليس معي من حدة الذهن ما أبتدىء به الرأي ، ولكن اجتمعوا وقولوا ، فإني إذا مرّ بي الصواب عرفته)[4] .

حكم سادات القبائل :

وحكم سيد القبيلة حكماً يتوقف على شخصيته ومكانته ، فإذا كان السيد قوياً

---

١ تاج العروس (١٠/١٤٠) ، (رأي) .
٢ نهاية الأرب (٦/٧٦) .
٣ نهاية الأرب (٦/٧٧) .
٤ نهاية الأرب (٦/٨٠) .

حازماً مهيباً رفع مكانة القبيلة ، وصيّر لها منزلة بين القبائل ، وقد يفرض ارادتها على القبائـــل الأخرى . أما إذا كان ضعيفاً فاتر الهمة بارداً بليداً ، طمـــع فيه الطامعون ، وقد يكون سبباً في تشتت كلمة القبيلة وفي تجزئتها وهبوط مكانتها بين القبائل . فالرئيس هو الذي يخلق القبيلة ويعز مكانتها ، وهذا هو سر ظهور قبائل كبيرة بصورة مفاجئة ، ثم اختفاء أمرها وهبوط منزلتها بعد أمد . وسر ذلك ان الذي يرفع من شأن القبائل أو يخفض من منزلتها هو (سيد القبيلة) ، فهو روحها ، وهو الذي يمنحها إكسير الحياة .

وليس حكم سيد القبيلة ، حكماً مطلقاً ، لا مشورة فيه ولا أخذ رأي ، بل الحكم في القبائل حكماً مستمداً من رأي وجهاء القبائل وعقلائها وفرسانها وألسنتها المتبينة ، فهو حكم (ملأ القبيلة) . وقد يكون بيت رئيس القبيلة ، هو مجلسها وموضع حكمها . وإذا حدث حادث اجتمع عقلاء القوم في مجلس الرئيس وتباحثوا في الأمر . ويقال لمجلس القبيلة (عهرو) (ع هـ ر و) في اللهجة القتبانية [1] ، يعقد للنظر فيما يقع للقبيلة من أمر جليل ، مثل فرض ضرائب أو زيادتها ، أو إعلان حرب ، أو ما شاكل ذلك من أمور .

ونجد مثل هذه المجالس عند جميع القبائل . فإذا حدث للقبيلة حادث ، تجمع سادتها للتباحث في الأمر ، ولاتخاذ ما يرون اتخاذه من رأي . ولما كانت القبيلة منتشرة لا تستقر في واحد ، صارت مضارب سادات الأحياء اندية تلك الأحياء ، يجتمع فيها وجوه المضرب للسمر وللبت فيما قد يقع بين الحيّ من خلاف . وبهذه الطريقة يفصل في الخصومات وفي كل ما يحدث للحي من أمر .

ويروي أهل الأخبار شعراً زعموا أن (لقيطاً الإيادي) ، قاله في كيفية الحكم وسياسة الرعية ، فيه هذه الأبيات :

فقلّـــدوا أمـــركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعـا
ما زال يحلب درّ الدهر أشطره ... يكون مُتّبعاً طوراً ومُتَّبعـــا
حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحصد الرأي لا قحماً ولا ضرعا [2]

---

١ Katab. Texte., I, S. 78, Anm. 3, S. 79, Handb., I, S. 122

٢ نهاية الآرب (٦/١٧) .

حكم الملوك :

وتتلخص نظرة الجاهلية بالنسبة الى حكم الملوك فيما يأتي : الملك مالك والتابع مملوك ، واجبه تقديم حقوق الملك للملوك وحق الملك الطاعة وفي ضمن الطاعة : الإخلاص له ، والعمل بما يفرضه على التابع من حقوق وواجبات . وليس للرعية الإمتناع عن دفع ما في عنقها من حقوق للملوكها او ساداتها : سادات القبائل . وليس لأحد حق مطالبة ملكه بدفع مال له ، لا بصورة ثابتة معينة مقررة ، ولا بصور أخرى . إنما الملوك والسادات احرار ، لهم ان يعطوا ولهم ان يمسكوا ، وما يدخل خزانتهم ومـا يأتيهم من ربح من تجارة او مغنم من حروب او من عشور ومكوس وضرائب اخرى ، هو من حقهم وهو من ملكهم الخاص بهم . وكل ما يعود للحكومة ، هو لهم . لأنهم هم الحكومة ، والحكومة الرؤساء . وفي الحديث : « ومأكول حمير من آكلها ؛ المأكول : الرعية ، الآكلون الملوك جعلوا أموال الرعية لهم مأكلة ، اراد ان عوام اهل اليمن خير من ملوكهم »[1]. و (الآكال : مآكل الملوك . وآكال الملوك : مأكلهم وطعمهم : والأكل : ما يجعله الملوك مأكلة)[2] . والمأكولون إذن هم الرعية ، يأكلهم ملوكهم ، بما يأخذونه منهم من حقوق وبما يفرضونه عليهم من واجبات، والآكلون هم الملوك، لأنهم يأكلون ولا يعطون .

والحاكم ملك كان او سيد قبيلة ، هو حاصل المحيط الذي نشأ فيه والبيئة التي عاش بين اهلها ، لذلك نراه مستبداً الى آخر حدّ من جهة ، ونراه عطوفاً غافراً للذنوب من جهة اخرى . وهو القانون والسلطة التنفيذية والتشريعية ولا رادّ لحكمه وقضائه ، إلا التوسلات والوساطات وشفاعة الشفاع ، فإن تأثر بالشفاعة غير رأيه وإن اصر على رأيه فلا راد لحكمه . وحكم هذا شأنه يكون خاضعاً لمزاج الحاكم ولدرجة هدوء أعصابه واتزانه ، فإن كان الملك عاطفياً منفعلاً سريع التأثر، صار عهده عهد مشاكل ومؤامرات يكون قتل الأشخاص فيه من الأمور البسيطة . وما يومي البؤس والنعيم ، إلا مثل على عقلية الحكم في ذلك الوقت . وفي حكم كهذا تكثر فيـه بالطبع الوشايات والمؤامرات ، اذ يستغله الحساد وأصحاب الذكاء في

---

١ اللسان (١١/ ٢١) ، (آكل) .
٢ اللسان (١١/ ٢١) ، (آكل) .

الايقاع بخصومهم ، كالذي فعلوه من الايقاع بين النعمان والشاعر النابغة صديقه والمقرب اليه ، وكالذي فعلوه من الإيقاع بين (عمرو بن هند) وهو ملك متهور قلق ، وبين سادات القبائل مما سبب الى غزوهم والى استهتار بعض القبائل بحكمه وخروجه على طاعته .

وقتل الأشخاص من أبسط الأمور بالنسبة الى أولئك الحكام ، فإذا أزعجهم شخص او هجاهم شاعر او انتقصهم احد ، فقد يكون القتل جزاءً له في الغالب. وإذا امر الملك بقتل إنسان ، قتل ، ما لم يشفع له شفيع قويّ مؤثر . وإذا كان امر الملك بقتل الشخص في الحال ، قتل دون تأخير . ولا رادّ لحكمه . فهو الحاكم وهو المنفذ للأحكام . ولا اعتبار لمنزلة الشخص الذي سيقتل ، والشيء الذي يؤجل الموت او يبعده عن شخص ما ، هو هروبه الى رجل منافس لهذا الحاكم كاره له ، او له دالة عليه ، فينقذ لجوؤه الى ذلك الشخص رقبته من سيف الجلاّد .

وللملك إحراق من يشاء إذا أراد ، والتمثيل بجسم عدوّه . وقد رأينا جملة ملوك من ملوك (آل لخم) و (آل غسان) وقد عرفوا (بمحرق) لأنهم حرقوا أعداءهم بالنار . لم يحرقوا بيوتاً ، بل بشراً ، وقد رأينا بعض الروايات ، وهي تنسب الى (المنذر بن ماء السماء) قتل راهبات وقعن في الأسر من غسان ليكنّ قرابين قربهن الى العُزّى . ورأينا امر (عمرو بن هند) بذبح تسعة وتسعين رجلاً من تميم على قمة (أوارة) ، لأنه حلف يميناً لينتقمن منهم بقتل مائة رجل منهم ، واحراقهم بالنار . فقيل له المحرق . وضرب بفعله المثل في قصة يروونها عن هذا المثل : إن الشقي وافد البراجم[1] .

وقد اشتهر (الجلندي) ملك (عمان) بظلمه ، حتى ضرب به المثل . فقيل (أظلم من الجلنديّ) و (ظلم الجلنديّ) . وقيل انه هو الذي ذكره الله في كتابه ، فقال : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً »[2] .

---

١ ثمار القلوب ، للثعالبي (١٠٧ وما بعدها) ، (وهو أول من عاقب بالنار) ، حمزة (٦٧) .

٢ سورة الكهف ، الآية ٧٩ ، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٨٣) ، الكشاف (٢/٥٧٨) .

ويذكر أهل الأخبار ان الملوك إذا ارادت قتل شخص ، لبست جلود النمر وجلست تتفرج على من يراد قتله . ويعبر عن ذلك بالتنمر[1] .

اصول التشريع وسن القوانين :

لا نملك اليوم نصوصاً في أصول التشريع وقواعده عند الجاهليين . إذ لم يعثر على نص خاص بهذا الموضوع . غير ان في بعض النصوص اشارات عابرة، يمكن ان نستنبط منها شيئاً عن قواعد التشريع عند العرب قبل الاسلام . وفي جملة هذه النصوص بعض النصوص القتبانية ، ومنها النص الموسوم بـ Glaser 1606 .

والعرب من الشعوب التي تميل إلى الأخذ بالرأي ، واستشارة ذوي الرأي والخبرة والسن . فنجد سيد القبيلة يستشير سادات القبيلة ووجوهها في الأمور الخطيرة التي تقع لقبيلته. كما نجد المدن والقرى تستنير برأي أولي الأمر في المشكلات التي تقع لها ، لحلها وفقاً لما يستقر عليه رأي ساداتها . وفي العربية الجنوبية نجد للقبائل مجالسها كذلك ، حيث يجتمع اصحاب الرأي في القبيلة ، للنظر فيما يقع لقبيلتهم من امر نابه وقضايا خطيرة يجب أخذ الرأي فيها . وكان للملوك مستشارون يستشارون في القضايا التي يعرضها الملك عليهم ، بالاضافة الى (المزاود) والمجالس الأخرى .

وقد استشار الملوك اصحاب الأرض من طبقة (طبنن) (الطبن) . والمستشارين الذين عرفوا بـ (فقضت) و (بتل)[2] ، كانوا يجمعونهم لأخذ رأيهم في امور الأرض وفي مسائل اخرى . كما استشاروا كبار رجال المعابد من درجة (رشو) و (شوع)[3] . وكان لرأي هؤلاء أهمية كبيرة بالنسبة للملوك ، لما كان لهم من نفوذ وكلمة في المجتمع .

ولم يكتف الملوك بأخذ رأي الطبقات المذكورة عند إقرار قانون ، بل كانوا يرسلون آرائها ووجهة نظرها إلى مجالس القبائل وإلى سادات ووجوه المدن والقرى والمستوطنات للوقوف عليها ولبيان رأيهم فيها ، وذلك في القضايا العامة التي تشمل

---

١ تاج العروس (٣/٥٨٧) ، (نمر) .
٢ Glaser 1606, Arabien, S. 128.
٣ Arabien, S. 127.

كل الدولة ، مثل تنظيم امور استثمار الأرض وفرض الضرائب والقوانين التجارية ، لتدرس وتعالج على ضوء مصالح كل المتنفذين من ذوي الرأي والجاه في المملكة ، على قدر الامكان ، وليكون في الامكان تطبيقها وتنفيذها دون كبير اعتراض . ومتى جاء رأيهم ووقف الملك على كل الآراء وأحاط علماً بها ، عمل برأيه فيها واتخذ قراراً باتاً بموجبها . ويعبر عن اتخاذ قراره هذا بلفظة (جزمن)أي(الجزم) . جزم الملك برأيه وامضائه لاصدار ذلك القانون . ويأمر عندئذ بتدوينه ، ويعبر عن ذلك بجملة (سطرن ذت يدن) ، أي (وقد كتب القرار بيده) ، كناية عن انه أمر بنفسه بتدوينه ونشره ، فكأن يده ذاتها قد سطرته . وقد تدوّن جملٌ اخرى في هذا المعنى ، مثل (تعلمه ذت يدن) و (تعلمه يدن) أي ووقعه بيده ، بمعنى أمضاه وختمه بختمه ، وذلك على ما يفعل رؤساء الدول من التوقيع تحت نص القوانين والأوامر ، لاكسابها صبغة رسمية . وتذكر بعد اسم الملك أسماء بعض رجال الحاشية وكبار السادات وأعضاء المزاود ، ممن يكونون قد ساهموا في إصدار القانون ، ولهم قوة تنفيذية في المملكة. على نحو ما نفعل من ذكر اسم رئيس الوزراء والوزراء المختصين ممن لهم علاقة بتنفيذ القانون بعد اسم رئيس الدولة ، دلالة على موافقتهم عليها ، واقرارهم لها .

وبعد الانتهاء من موافقة الملك عليه بتثبيت اسمه عليه يدون وتحفظ نسخاً منه في خزائن الحكومة للرجوع اليها ، ويقرأ القانون على الناس للاطلاع عليه . ثم يكتب على أحجار تثبت في جدر الساحات الكبيرة التي يتجمع فيها ، لا سيما ساحات أبواب المدن والقرى التي تكون عند المداخل ، وهي ساحات الاعلان[1] ويكون القانون بذلك ملزماً واجب التنفيذ ، وعلى موظفي الحكومة والرعية العمل بما جاء فيه .

وفي حالات سن القوانين التي تخص قبيلة واحدة أو مكاناً معيناً ، يجتمع المجلس الاستشاري (المزود) لتلك القبيلة او المكان ، ثم يتداول في الأمر . وقد يحضره الملك بنفسه . وقد يحضره ممثل او ممثلون عنه . وإذا اتخذ المجلس قراراً في أمرٍ ما ، فله الحق باصداره باسم الملك ، كما ان له الحق بإصداره باسمه ، أي باسم المجلس الاستشاري الذي اتخذ القرار . واذا صدر باسم الملك

---

١ Arablen, S. 128.

دلّ ذلك على أنه قانون رسمي وافقت الدولة عليه ، أما في حالة اغفال الاشارة الى اسم الملك في القرار ، فـإن ذلك يدلّ على انه قانون خاص خصص بالموضع الذي أصدر المجلس قراره فيه . وتطبق احكامه عليه وحده .

ومن حق المجالس اقرار القوانين القديمة وتثبيتها ، كما ان لها حق الغائها او تعديلها ، ويصدر قرارها بقانون . ومن حقها ايضاً العفو عن المحكوم عليهم ، عفواً كلياً او جزئياً . وتنظيم حقوق الأرض بقوانين يصدرها عند الحاجة وحسب مقتضيات الأحوال[1] .

ومن الصعب علينا في الوقت الحاضر تثبيت اسماء الهيئات المشرعة في العربيـة الجنوبية ، اي الهيئات التي كان من حقها سن القوانين ووضع الأنظمة . لأننا نجد في نصوص المسند اسماء مؤسسات سنّت قوانين ووضعت أنظمة في جباية الضرائب وفي تنظيم معاملات البيع والشراء والأرض . مثل (ذو عهرو) (عهرو) في قبيلة (فيشن) (فيشان) من قبائل سبأ و (مسخنن) (مسخنـان) في سبأ كذلك . ومؤسسات اخرى لا نعرف الآن من أمرها شيئاً يذكر . يظهر أنهـا كانت مجالس ومؤسسات ذات طابع محلي تشمل صلاحيتها الموضع الذي تكون فيه وكان من حقها تشريع ما ترى ضرورياً بالنسبة الى تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لذلك المكان[2] .

ويستنبط من تعدد المجالس والجمعيات ومن الأعمال التي قامت بها ، أن الحكم في العربية الجنوبيـة قبل الميلاد كان حكماً قريباً من الحـكم (الديمقراطي) الشعبي . وان سلطات الملوك كانت مقيدة ببعض القيود ، فلم يكن الملك يصدر أمراً إلا بعد أخذ رأي المجالس المختصة واستشارتها وأخـذ موافقتها . والمجالس المذكورة وإن كانت في الواقـع مجالس كبار اصحـاب الأرض واصحاب الجاه والنفوذ ، ولا رأي لسواد الناس فيهـا ، وكان للملوك نفوذ عليها ودخـل في قراراتها ، ولا سيما الملوك الكبار اصحاب الشخصية ، إلا ان وجودهـا على تلك الصورة وعلى هذا النحو من الحكم ، هو خير بكثير من عدم وجودها ومن حكم لا يستند على أي مجلس ولا على أية استشارة أو رأي ، كما كان الوضع عنـد

---

١ Handbuch I, S. 125.

٢ Handbuch, I, S. 128.

بعض الشعوب التي حكمها حكام مستبدون ، حكموا شعوبهم حكماً فردياً تعسفياً، لم يستند على رأي ، لا رأي النخبة من الأمة ، ولا رأي الشعب .

ودام الحال على هذا المنوال إلى القرن الثاني للميلاد تقريباً ، ثم تبدّل وتغير. فلما جاء القرن الثالث تقلص ظل حكم الأخذ بالشورى والرأي ، حتى زال هذا الحكم ، واختفى ذكر (المزاود) ، ولم نسمع بعد ذلك لها خبراً . ويظهر ان العربية الجنوبية قد سارت على الطريق التي سلكها ملوك اليونان وقياصرة (رومة) من التنكر للحكم (الديمقراطي) والابتعاد عنه ، للاخذ بمبدأ حكم (الفرد) ، وهيمنة الحاكم الأعلى على كل شيء . فلما بسط ملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت سلطانهم على أرضين واسعة ، وكوّنوا لهم جيشاً كثير العدد غزوا بـه امارات والمخاليف ، ازداد بذلك ملكهم ، واتسع مالهم ، وقضوا على من كان له رأي ونفوذ في المجالس حتى زالت المعارضة وصار الأمر بأيديهم ، وبأيدي من يرضون عنهم ممن يأتمر بأمرهم . وبزوال قوة أصحاب المجالس ، زال حكم الرأي والشورى الذي كان يحدّ بعض التحديد من سلطان الملوك ، ويمنعهم من وضع القوانين من دون أخذ رأيهم ، وصار الحكم إلى رأي الملوك وإلى رأي الأقوياء من كبار أصحاب (المخاليف) .

ومما ساعد على زوال حكم الأخذ بالمشورة والرأي واستبداد الملوك وكبار رجال الاقطاع بالحكم ، هو تدفق الأعراب من الحجاز ونجد وسواحل الخليج إلى العربية الجنوبية وازدياد عددهم فيها ، ولا سيما بعد انهيار حكم مملكة كندة وارتحالهم من منازلهم إلى العربية الجنوبية ، فازداد بذلك نفوذ الأعراب واستغلهم الملوك للقضاء على نفوذ الأقيال والأذواء وذوي الاقطاع والنفوذ والجاه ، حتى صار لهم نفوذ واسع في المملكة ، وغدوا قوة اعترف الملوك بها ، فأشاروا اليها في لقبهم الرسمي الذي صار على هذا النحو : ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها في الأطواد والتهائم .

وقد استغل سادة الأعراب حاجة أهل الحكم والمتنافسون عليه اليهم ، ببراعة ودهاء . فصاروا يؤيدون من يغدق عليهم بالمال ، ومن يفسح لهم المجال للغزو والسلب والنهب ، ومن يزيد على غيره في اعطاء المال لهم . وأخذوا يتنقلون من جهة الى أخرى . يعيشون بالأمن في وقت كان الأمن فيه مضطرباً قلقاً . يهاجمون المدن والقرى والحكومات . وهذا ما أقلق بال الحكومات والرعية ، وجعل الناس

يخشون على حياتهم ومالهم ، ويعيشون بقلق ، في ظل حكومات صغيرة عديدة، لا همّ لها سوى مخاصمة بعضها بعضاً والتناحر ، على عادة الحكومات المتنافسة الصغيرة في التكالب فيما بينها تكالب الكلاب .

وقد امتاز هذا العهد بكثرة حروبه وبكثرة ظهور الثورات فيه . وباضطرار الملوك الى قضاء معظم أوقات حكمهم في مكافحة تلك الثورات وفي محاربة الاقطاعيين الذين أراد الملوك تقليص نفوذهم . وهذا مما جسر الحبش على العربية الجنوبية ، فدخلوا قوة فاتحة فيها . ووضع مثل هذا لا يساعد على قيام حكم (ديمقراطي) ولو بشكل هزيل . وقد أثرت هذه الحروب والاضطرابات على وضع العربية الجنوبية ، فأخرتها كثيراً ، وقضت على ما كان فيها من حضارة ، وجعلت البلاد بلاد حكومات : حكومات قبائل قرى ومخاليف وعشائر . ولو ان الحكم هو للملوك أو للاحباش أو للفرس . وبقي الحال على هذا المنوال حتى ظهر الاسلام ، فقضى على الحكم الأجنبي في العربية الجنوبية .

ولم يتمكن الحبش من حكم العربية الجنوبية كلها . ولم يكن من السهل عليهم حكمها لطبيعة أرضها ولتركز الاقطاع فيها ، وهو نظام لازم تأريخها من قبل ظهور الحكم المركزي المنظم فيها ، حتى صار من تراث تلك البلاد المميز لها في التأريخ . لقد اقتصر حكم الحبش في اليمن على مدن رئيسية معينة ، كونت منطقة متصلة ، أما خارجها فكان الحكم فيها بيد (الأقيال) الذين ركزوا حكمهم وقووه بتآزرهم وتعاونهم . وبقي الحال على هذا المنوال ايام الفرس أيضاً . بل أستطيع ان أقول إن حكم الفرس كان حكماً شكلياً ، مقتصراً على بعض المواضع ، أما الحكم الواقعي فكان للأقيال . ولا عبرة لما نقرأه في الموارد الاسلامية من استيلاء الفرس على اليمن ، لأن هذه الموارد تناقض نفسها حين تذكر أسماء الأقيال الذين كانوا يحكمون مقاطعات واسعة في ايام حكم الفرس لليمن ، وكان منهم من لقب نفسه بلقب ملك ، وكان له القول والفعل في أرضه ، ولا سلطان للعامل الفارسي عليه .

حكومات مدن :

استعملت لفظة (حكومة) بالمعنى المجازي ، فلم يكن للمدن حكومات بالمعنى

المفهوم من الحكومة في الزمن الحاضر ، أي رئيس مفروض على المدينة بحكم الوراثة أو بحكم القوة ، أو رئيس منتخب ينتخبه أبناء المدينة أو ساداتها وأشرافها لأجل معلوم أو لأجل غير معلوم .

ولم يكن لهذه المدن موظفون نيطت بهم أعمال معينة وواجبات محددة عليهم القيام بها ، في مقابل أجور تدفع لهم . ولم يكن فيها مؤسسات ثابتة مثل المحاكم والشرطة لضبط الأمن والضرب على أيدي من يخلّون بالأمن ويخرجون على أوامر المجتمع وقوانينه ، ولم يكن فيها ما يشبه أعمال الحكومة المعروفة عندنا ؛ لأن مجتمع ذلك العهد يختلف عن مجتمعنا الحديث .

فمكة مثلاً ، وقد كانت من أبرز مدن الحجاز في القرن السادس للميلاد ، لم تكن ذات حكومة . لم يكن يحكمها ملك ، ولم يحكمها رئيس ، وكذلك كان أمر (يثرب) و (الطائف) وسائر قرى العربية الغربية . لم يكن فيها أي شيء من هذه المؤسسات الثابتة التي تكون الحكومة ، والتي تتعاون لتدبير أمور الناس .

وكل ما كان في مكة ، أسر ، يعبر عنها بـ (آل) و (بني) ، فيقال : (آل عبد المطلب) و (آل عبد شمس) و (آل هاشم) ، و (بنو عبد المطلب) و (بنو عبد شمس) و (بنو هاشم) ، وهكذا ، تستوطن شعاباً خصصت بها . وكل (شعب) مجتمع قائم بنفسه ، له سادته وأشرافه ، وهم وجوه الشعب ، وأصحاب الحل والعقد في هذا المجتمع .

ويقوم وجوه الشعب بفض ما يحدث بين أبناء الشعب من خلاف ، وبالنظر في أمر المخالفين لأعراف الشعب وعاداته ، وأحكامهم غير إلزامية ولا تسندها قوة تنفيذية ، بل تنفذ بحكم الأعراف والأصول المرعية ، وبحكم وجاهة هؤلاء الرؤساء ومكانتهم عند الشعب .

أما إذا حدث حادث تجاوز مداه حدود (الشعب) ، فشمل شعباً آخر أو عدة (شعاب) ، فيكون أمر النظر فيه لسادات (الشعاب) التي يعنيها الأمر ، فيجتمعون عندئذ للنظر في الأمر وللبت فيه بحكمة وبأناة قدر الإمكان ، مراعاة للجوار ، واقراراً للسلم . وإذا أخفق المجتمعون في اتخاذ قرار ، توسط بينهم وسطاء محايدون لفض ذلك النزاع بالتي هي أحسن .

وقد ينشب خلاف بين الأحياء على أمور تمس المصالح الكبيرة الخاصة بالأسر ،

فتفعل هذه الأحياء عندئذ ما تفعله القبائل ، تلجأ الى حلفائها ، أو تجدد أحلافها، أو تعقد حلفاً جديداً لتدافع به عن مصالحها، كالذي كان من أمر (حلف المطيبين) وما كان من أمر (الاحلاف) ، أو من (حلف الفضول) .

أما ما يتعلق بأمر المدينة كلها ، كأمر مكة مثلاً، من أمور تتعلق بأحوال السلم أو الحرب ، فيترك النظر في ذلك الى (الملأ) (ملأ مكة) مثلاً . وهم وجوه مكة وسادتها من كل الأسر ، فيجتمعون في (دار الندوة) أو في دور الرؤساء للنظر في القضايا والبت فيها . فيبين الرؤساء آراءهم ويتناقشون فيها، فإذا اتفقوا على شيء ألزموا أنفسهم تنفيذه، وإن لم يتفقوا على شيء ، وكان النزاع بين المجتمعين حاداً، حاول كل فريق تأليف جبهة قوية لمقابلة الجبهة المعارضة ، ولمنعها من الاعتداء عليها ، وقد يعمد المتخاصمون إلى مقاطعة بعضهم بعضاً، مقاطعة اقتصادية واجتماعية، كالذي حدث من مقاطعة أغلب قريش لآل هاشم وآل المطلب ، بسبب تمسك أبي طالب بابن أخيه الرسول ودفاعه عنه . فما كان من بقية قريش إلا أن قررت مقاطعة (أبي طالب) ومن آزروه وانضم اليه .

ونجد في مكة نوعاً من التخصص في الأمور . والظاهر ان ذلك انما كان عن استئثار بعض الرجال البارزين بعمل من الأعمال ، ثم انتقل ذلك منه إلى ورثتهم بالإرث أو بالاتفاق أو بالنص ، ثم صار سنّة اتفق عليها ، كالذي ورد من أمر (الرفادة) وهي ما كانت تخرجه قريش من أموالها وترفد به منقطع الحاج[1] . وقد عرفت (الرفادة) انها شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية ، فيخرج كل انسان مالاً بقدر طاقته ، فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً ايام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي ايام موسم الحج . وكانت الرفادة لبني هاشم . وذكر ان أول من قام بالرفادة (هاشم بن عبد مناف) وسمّي هاشماً لهشمه الثريد[2] .

وكالذي ورد من أمر (السقاية) ، سقاية الحاج . وقد عرفت انها مأثرة من مآثر قريش في الجاهلية . وهي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ، وكان يليها (العباس بن عبد المطلب) في الجاهلية والاسلام[3] .

---

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ اللسان (ث/ر/د) ، (٣/١٨١) ، تاج العروس (٢/٣٥٥) ، (رفد) .
٣ اللسان (س/ق/ي) ، (١٤/٣٩٢) ، تاج العروس (١٠/١٨١) ، (سقى) .

وكالذي جاء من أمر (السدانة) مع (الحجابة) . والسادن : خادم الكعبة وبيت الأصنام . وكانت السدانة في الجاهلية لبني عبد الدار ، فأقرها النبيّ لهم في الاسلام . والسدنة هم الذين يتولون فتح باب الكعبة واغلاقها وخدمتها[1] .

وأما (الحُجّاب) فهم سدنة البيت أيضاً . وذكر ان الفرق بين السادن والحاجب ان الحاجب يحجب واذنه لغيره ، والسادن يحجب واذنه لنفسه[2] والحجبة هم حجبة البيت . ورد في الحديث : « قالت بنو قصيّ فينا الحجابة ، يعنون حجابة الكعبة ، وهي سدانتها ، وتولي حفظها ، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها »[3] .

وكالذي ذكر من أمر (الندوة) ، والندوة التجمع والجماعة . و (دار الندوة): دار الجماعة ، سميت من النادي . وكانوا إذا حزَبهم أمر ، ندوا اليها ، فاجتمعوا للتشاور[4] .

وكالذي روي من أمر (المشورة) . وذلك أن رؤساء قريش كانوا إذا أرادوا أمراً استشاروا ذوي الرأي والعقل والحنكة ، ومن هؤلاء (يزيد بن زمعة بن الأسود) ، وهو من (بني أسد) . فكانوا إذا أرادوا أمراً ذهبوا اليه،وعرضوه عليه . فإن وافقه والاهم عليه وإلا تخير . وكانوا له أعواناً . وقد أسلم،واستشهد بالطائف[5] .

ومن الأعمال التي كانت في مكة (الأشناق) . وهي الديات والمغرم . وكانت لأبي بكر ، وهو من (بني تيم) فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه . وإن احتملها غيره خذلوه[6] . ويدل هذا على أن تقدير الأشناق لم يكن ثابتاً ، بل كان يعود الى تقدير صاحب الاشناق . كما يدل أن غيره قد قام به .

ومن أعمال مكة (السفارة) ، وذلك أن أهل مكة كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوا سفيراً ، وإن نافرهم حيّ لمفاخرة جعلوا لهم منافراً لينافرهم.

---

١ اللسان (س/د/ن) ، (١٣/٢٠٧) .
٢ اللسان (س/د/ن) ، (١٣/٢٠٧) .
٣ اللسان (ح/ج/ب) ، (١/٢٩٨) ، تاج العروس (٢/٢٣٩) ، (طبعة الكويت) .
٤ اللسان (ن/د/١) ، (١٥/٣١٧) .
٥ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) ، المحبر (ص ١٠٢) .
٦ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٦/٤٠٠) ، (شنق) ، الاستيعاب (٢/٢٣٧) .

وكانت السفارة والمنافرة في (بني عدي) عند ظهور الإسلام . وكان الذي يتولاها إذ ذاك (عمر بن الخطاب)[1] .

وذكر أهل الأخبار أن (بني سهم) (الحارث بن قيس) ، وكانت اليه الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم[2]،والتي كانوا يخصصونها من مغانمهم في السلم وفي الحرب .

ومن أعمالهم (الأيسار) ، وهي (الأزلام) ، وقد ذكر أهل الأخبار أنها كانت في (بني جمح) ، ويتولاها منهم (صفوان بن أمية) . فكان لا يُسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه[3] .

ومن الأعمال الأخرى التي ذكرها أهل الأخبار (العمارة) . وكان الذي يتولاها عند ظهور الإسلام (العباس) . وكان ينهى الناس من أن يتكلم احدهم في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا أن يرفع صوته[4] .

وأشار أهل الأخبار الى ما يسمى بـ (حُلْوان النفر) وقالوا إن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحداً ، فإن كانت حرب اقرعوا بين أهل الرياسة ، فمن خرجت عليه القرعـــة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً . فلما كان يوم الفجار ، أقرعوا بين بني هاشم ، فخرج منهم العباس ، وهو صغير ، فأجلسوه على المجن[5] .

وقد كانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم[6] .

واهتم أهل مكـــة بأمر الحروب والدفاع عن مدينتهم . ويقتضي ذلك وجود أناس لهم خبرة وتجربة في الحرب ، ولهم رأي في أحوالها وأصولها وحيلها وخدعها. فالحرب خدعة ، ولا بد للقائد من اللجوء الى الخدع والحيل الحربية للتغلب على خصمه . ونظراً لضرورة التهيـــؤ للحرب في أيام السلم ، أوجد أهل مكة بعض الأعمال وعهدوا الى أصحابها القيام بها . منها القبة والأعنة وخزن الأسلحة وحمل اللواء والقيادة .

---

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٢ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٣ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٤ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٥ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٦ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .

أما (القبة) فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون بـــه قريشاً . وأما (الأعنة) ، فيكون صاحبها على خيل قريش في الحـــرب[1] . وكانتا إلى (خالد بن الوليد) وهو من (بني مخزوم) عند ظهور الاسلام .

وذكر ان قريشاً كانوا يحفظون الأسلحة عند (عبدالله بن جدعان) ، فإذا احتاجوا إلى السلاح وزعه فيهم[2] . فبيته مخزن قريش للاسلحة . ويذكر ان القبائل كانت إذا حضرت المواسم أودعت سلاحها (عبدالله بن جدعان) ، فإذا انتهى الموسم وقررت العودة استعادته منه ، وذلك لأمانته ولشرفه ولوثوق الناس به .

ومن الأعمال التي لها علاقة بالحرب : (اللواء) . وذكر ان (عثمان بن طلحة) وهو من (بني عبد الدار) كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابـــة ، ويقال : والندوة أيضاً . وكانت هذه في (بني عبد الدار) . وورد في خبر آخر ان راية (العقاب) وهي راية قريش ، كانت عند (أبـي سفيان) وهو من (بني أمية)[3] . و (العقاب) راية للنبي ، كما ورد في الحديث . وذكر ان العقاب علم ضخم ، يعقد للولاة شبّه بالعقاب الطائر[4] .

والقيادة : قيادة جيش مكة . وقـد كانت إلى بني أمية في الغالب[5] . ولكن العادة ان يتولى سادات مكة قيادة أحيائهم في القتال . فيقود سيد كل شعب أبناء شعبه ويوجههم حيث يرى في المعركة . أما التنسيق بين خطط المقاتلـين لانجاح المعركة فيكون أمره إلى من تسلمه قريش قيادتها العامة في الحرب من الرجال المحاربين أصحاب الرأي في الحروب . وكان (حرب بن أمية) قائد قريش في الفجار وفي ذات نكيف.

ويجب ان نضيف الى ما تقدم قيادة قوافل قريش ، وقد كان أمر (عير قريش) إلى (أبـي سفيان) عند ظهور الاسلام[6] . و (عير قريش) قافلتها . وقـد كانت رئاسة القوافل من الأعمال الهامة في ايام الجاهلية . وعندما تعود القافلة سالمة غانمة يستقبل قائدها استقبال الأبطال . وقد أشير في الكتابات اللحيانية والتدمرية إلى (رئيس القافلة) ،على انه من الشخصيات المهمة البارزة في تدمر وعند اللحيانيين.

---

١ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) ، ابن الأثير ، أسد الغابة (٢/١٠١) .
٢ أيام العرب (ص ٣٢٩) .
٣ العقد الفريد (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (١/٣٩٣) ، (عقب) .
٥ الازرقي (١/٦٣ وما بعدها ، ٦٦) .
٦ الطبري (٢/١٣٢) .

وكذلك كان أمر قائد قافلة قريش ولا شك. وورد في الكتابات النبطية لقب آخر غير لقب : (زعيم القافلة) هو (زعيم السوق) ، سأتحدث عنه فيما بعد[1] .

وذكر ان من أعمال قريش في الجاهلية ، عمل يقال له (العمارة) . وكان إلى (العباس بن عبد المطلب) ، بالاضافة الى السقاية[2] . وقد خرجت عليه القرعة يوم الفجار ، فنصب رئيساً على (بني هاشم) . وكان من عادة قريش والعرب — كما يزعم أهل الأخبار — انهم لم يكونوا يملّكون أحداً عليهم . فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرئاسة ، فمن خرجت عليه القرعة أحضروه ، صغيراً كان أو كبيراً . فلما خرجت القرعة على العباس، وهو صغير، جاءوا به، فأجلسوه على المجن.

و (العمارة) عمارة البيت . وقد عدّت من مفاخر قريش . وقد أشير اليها في القرآن : « أجعلتم سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر »[3] . وقد ورد ان ممن تولاها (العباس بن عبد المطلب)[4] و (شيبة بن عثمان)[5] . وذكر ان (المشركين قالوا : عمارة البيت وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد . وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل إنهم أهله وعمّاره . فذكر الله استكبارهم واعراضهم)[6] .

أما بخصوص نظام الحكم في يَثرب ، فإنه لا يختلف عن طريقة نظام الحكم في مكة ، فلم يكن لأهل يثرب عند ظهور الإسلام رئيس وقد حاول بعض سادتها من الأوس والخزرج تنصيب أنفسهم ملوكاً على المدينة ، غير أنهم لم يفلحوا في مسعاهم فلم ينصبوا ملوكاً عليها . والظاهر أن للمنافسة الشديدة العنيفة التي كانت بين الأوس والخزرج على الزعامة والرئاسة يداً في عدم تمكين أي أحد من سادة يثرب من الانفراد بزعامة المدينة وبالسيادة عليها . وقد يكون لوجود اليهود بيثرب يد في تعميق الخلاف بين (أولاد قيلة) ، إذ لم يكن من مصلحتهم اتفاقهم واجماعهم على اختيار رئيس واحد قوي . فالرئيس القوي سيبسط نفوذه من غير شك على يهود يثرب أيضاً ، ويستذلهم ويجعلهم أتباعاً له . أما في حالة تشتت

---

١ Cooke, North-Semitic, p. 274, 279.
٢ الإصابة (٢/٢٦٣) ، (رقم ٤٥٠٧) .
٣ التوبة ، الآية ١٩ .
٤ تفسير الطبري (١٠/٦٧) ، الإصابة (٢/٢٦٣) .
٥ تفسير الطبري (١٠/٦٨) .
٦ تفسير الطبري (١٠/٦٧) .

كلمتهم وتشاحنهم فستكون لليهود إمكانية إثارة فريق على فريق ، والاستفادة من سياسة فرق تسدّ . وبذلك يكون أمرهم ونهيهم في أيديهم بدلاً من أن يكون في أيدي (صاحب يثرب) .

وقد حاول أهل يثرب من الأوس والخزرج حلّ مشكلة الحكم في مدينتهم حلاً وسطاً ، على قاعدة: أن من الأوس أمير ومن الخزرج أمير . يحكمان حكماً مشتركاً ، او على التوالي ، كأن يحكم سيد الأوس سنة ، ثم يترك الحكم لسيد الخزرج ليحكم السنة التالية ، ثم يعود فينسحب ليتولى الحكم سيد الأوس وهكذا ، غير أن الحل لم ينجح ايضاً ، وبقيت المشكلة : (مشكلة الحكم) مستعصية غير محلولة حتى دخل الرسول يثرب ، فحلّها حلاً أزعج بعض من كان طامعاً في الحكم وكان يرغب ان يكون سيد يثرب .

هذا ولم نعثر في الأخبار الواردة الينا عن يثرب ، على خبر يفيد وجود (ناد) في هذه المدينة على شاكلة (دار الندوة) أو نوادي الملأ . والظاهر أنه قد كان للنفرة الشديدة التي كانت بين الحيين : الأوس والخزرج يد في عدم ظهور مجلس حكم موحد في هذه المدينة . فبغض كل حيّ للحيّ جعل الاتفاق فيما بينهما على تكوين مجلس واحد من (ملأ) المدينة أمراً صعباً ، على حين كان ذلك ممكناً بالنسبة لأهل مكة ، لأنهم كانوا كتلة واحدة ، ومصلحتهم في حكم مشترك هي مصلحة عامة . ولم تكن المنافسات عندهم بين الأسر شديدة حادة ، لذلك كان من الممكن اجتماع سادات الأسر في مجلس واحد ، لا سيما وهم تجار ، ومن مصلحة التاجر تمشية الأمور وتصريفها بالطرق السلمية ، وحلها بغير تعنت ولا تشدد وغطرسة .

وكان أمر (الطائف) في أيدي (ملأ المدينة) . يديرون شؤونها في أيام السلم والحرب ، ولم يرد في الأخبار أن أهل الطائف توجوا رجلاً عليهم، فجعلوه ملكاً ، ولم يرد فيها أيضاً انهم رأسوا رئيساً عليهم ، بل كانت الرئاسة في عدد من الرؤساء ، هم سادات البطون والأحياء . ولكل رئيس كلمته في حيّه الذي يقيم فيه .